تفسير القرآن بالقرآن

تفسير سورة

العنكبوت

تأليف

أ.د / طه جابر العلواني

الناشر

الاتقان للترجمة والنشر والبحوث

القاهرة: شركة الإتقان للترجمة والنشر (٢٠١٦ م).

شركة الإتقان للترجمة والبحوث والنشر والتنمية البشرية

٣٦ ب ش الجزيرة الوسطى، الزمالك، القاهرة

www.alwani.academy

www.alwani.org

info@alwani.org

taha.alwani@gmail.com

رقم الإيداع: ٢٢٠٠٧ / ٢٠١٦

الترقيم الدولي:

٩٧٨ - ٩٧٧ – ٨٥٣١٥ – ٠ – ٣

تفسير القرآن بالقرآن

تفسير سورة

العنكبوت

تأليف

أ.د/ طه جابر العلواني

الناشر

الإتقان للترجمة والنشر والبحوث

٢٠١٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العنكبوت

مقدمة

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾(الفرقان: ١)

الحمد لله رب العالمين، نستغفره ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، ونصلي ونسلم على رسول الله ومن اتبعه واهتدى بهديه إلى يوم لقاه. الحمد لله المحمود بكل لسان، ذي الطول، والفضل، والإنعام. المعبود فى كل زمان، ومكان، الذي فضّل ديننا على سائر الأديان، وأنزل القرآن ليحكم على الإنس، والجان، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده، ورسوله، الذي أرسله رحمة للعالمين فى كل زمان، ومكان.

ثم أما بعد،

فإن القرآن الكريم قد يَسّرَه الله للذكر ، وجعله نبيّا مقيما يخاطب به الأحياء ، كما يخاطب به من هم فى حكم الأموات ليبعث فيهم الحياة، ويوجد فيهم حقيقتها قال تعالى ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(الأنعام: ١٢٢). فهو حياة كله فى

وحدته البنائيَّة، وحياة للأمم عندما تجمع بين القراءتين، وهو حامل المنهج، والمؤسس له، قال تعالى ﴿ **يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾(**المائدة:١٦**). وإذا لم ينفعل الإنسان بالقرآن المجيد، وما فيه من الحياة والنور؛ فعليه أنّ يدرك أن ذلك ليس بناجم عن قصور فى القرآن؛ بل هو ناجم عن "وقر" فى آذان المستمع، والقارئ، أو "أكنة" على قلبه تحول بينه، وبين القرآن، أو بينه وبين تنزله على قلبه، فلا يخالط القرآن الكريم بشاشته، ولا يفتح مغاليقه، بل تحجب أنواره عن ذلك القلب ، قال تعالى ﴿**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ (**لقمان:٧**)، ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ**﴾ (**فصلت:٥**)، ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**﴾ (**الأنعام:٢٥**)، ﴿**وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا**﴾ (**الإسراء:٤٦**)، ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا**﴾ (الكهف:٥٧).

ولذلك فإنَّ القارئ إذا لم يجد آثار القرآن فى قلبه، وأنوار تدبرّه فى نفسه وعقله ووجدانه فلا يلومنّ إلا نفسه؛ فليصلح من شأنها، وليقم بمعالجتها؛ لِتُحْسِنَ التلقي ، وتمهر فى التدبّر فيحصل على نصيبه من أنوار القرآن الكريم وكرمه.

ويعود هذا التفاعل بحسب تمرير الإنسان لآياته على قلبه وتكراره لها؛ فكلما ازداد التكرار ازداد التفاعل، وكلما ازداد التأمل والعيش مع الآيات والإحساس بها، كلما استشعر القارئ كأن الله يخاطبه بالقرآن المجيد الآن ولأول مرة، فيمرر ما يقرؤه بعينه إلى لسانه، ثم يعرج به إلى

المخ، والجهاز العصبيّ ليفكر فيه، ويستشعره، ويجعله يجرى مجرى الدم منه، ويعود به إلى القلب؛ حتى يبلغ بالمتدبر حالة الوعى بما قرأه، وتدبَّره من القرآن الكريم، فيجب الاستشعار بالكلمات، والخروج بها من اللسان إلى المخيلة، ثم إلى القلب فيرقى شيئًا فشيئًا.

وحقيق بالإنسان ألا يكون بعيدًا عن الله، وحين يحرص الإنسان على العمل بآيات الله فى حياته، يستجيب القرآن الكريم له، ويعطيه أمورًا أكثر عمقًا؛ لأنه اتَّبع أمر الله، وبالاستمرار فى العمل، والتطبيق سيتحقق التدبُّر الأفضل، والفهم الأمثل.

من معوقات تدبر القرآن الكريم:

وجدير بالمسلم أن يعلم المعوقات التي تحول دون تدبره للقرآن المجيد؛ ومنها: الذنوب، واتخاذ أحكام مسبقة قبل التدبر، وتعضية القرآن الكريم فيقرؤه على أنه مجرد آيات منفردة، أو سور منفكة ومنفصلة عن بعضها البعض، وكذلك جهله بعادات القرآن الكريم ولسانه الخاص به ، وكذلك جهله بالمقاصد العليا الحاكمة للقرآن الكريم ، وجهله بآثار مشكلة الناسخ والمنسوخ التي دخلت على الإسلام من توراة يهود، وأصبحت مصدرًا للتنازع بين المسلمين، والاختلاف فيما بيننا، وكذلك غموض الغاية من التدبُّر، كل ذلك يؤثر على فكر المتدبَّر؛ فيجب إخلاء ذهنه من ذلك قبل البدء في التدبُّر.

وعليه أن يتلو القرآن حق تلاوته، ويعمل على تفهم معانيه، ويجعل منه موجهًا له فى بناء نفسيّته، وعقليّته، ومنهجًا قويمًا؛ ومنهجًا قويمًا؛ لتكوين شخصيّته، وتقويمها، ، وأن يجعل من القرآن الكريم منهجًا لحياته؛ ليكون ممن قيل فيهم ﴿**الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ (**المؤمنون: ١١**). وإذا فعل القارئ ذلك؛ فسيتمتع بالمواصفات التى تجعل منه عضوًا صالحًا فى هذه الأمة، وكيانها الاجتماعىّ .

فالقرآن الكريم أراد فك الإنسان من إسار "الجبريَّة التاريخيَّة" ليكون القرآن المجيد منهجًا رائدًا، يقود الإنسان في عمليَّة "الاستخلاف" بكل متطلَّباتها ونماذجها وخطواتها. وهو دليل استخلاف وقاموس عمران وقيم.

و"المنهجيَّة القرآنيَّة" استطاعت إنشاء "أمَّة الكتاب"، وأعطت للإنسان ما كان بحاجة إليه في سائر جوانب حياته.

ولو بذل الناس في تدبّر القرآن المجيد، ومحاولة فهمه جزءاً مما بذلوه ويبذلونه في تعلّم العلوم الأخرى ومنها ما أسموه "علوم القرآن" –التي وضعوها بأنفسهم بحجة أنّها هِيَ التي ستمهد لهم السبيل لفهم القرآن– أقول: لو بذلوا جزءًا من هذه الجهود مع القرآن الكريم ذاته، في تدبّره، وفي تلاوته، حق التلاوة، أو في التفكّر فيه، والعمل على الوصول إلى مكنونه من داخله، وبأدواته، وبمنهجه؛ لنالهم خيرٌ كثيرٌ، ولتجنّبوا كثيرًا من السلبيّات التي يشتكي منها المتخصصون في كثير من تلك الجوانب، ولتغيرت حال الأمَّة المسلمة، ولسعت نحو الحضارة، ولاستحقت أن تكون أمَّة الشهادة بحق، وأمَّة الوسطيَّة بصدق.

القرآن المجيد والتفسير

منذ القدم والناس مختلفون هل يحتاج القرآن المجيد الذي وصفه الله وهو منزِله بأنَّه مبين وأنَّ آياته جميعًا بيّنات ومبيّنات، هل يحتاج خطاب مثل هذا إلى تفسير وشرح وبيان، بعد أن وصف بذلك كله من قبل الله جل وعلا ؟!

ذهب كثير من أهل العلم إلى أنَّ القرآن لا يحتاج إلى تفسير، [1]وأنَّ حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وخلقه وسائر تصرفاته هي تفسير عملي له، فهو (ﷺ) حين تلا القرآن على الناس وعلمهم إياه كان يعلمهم القرآن كما نزل، ويعلمهم طرائق العمل به، ويسنّ لهم

[1] انظر ما ذكره الطبري في تفسيره، باب "ذكر الأخبار التي غلط في تأويلها منكرو القول في تأويل القرآن"، تفسير الطبري، تحقيق محمود شاكر، المجلد الأول، ص٨٤

كيف يجعلون من آياته حياة يحيونها، وعملًا يمارسونه، فكان لا يعلّمهم عشر آيات، إلا ويعلمهم كيف يعملون بها، ويعمل بها أمامهم، ويأمرهم أن يتأسَّوا به وهو يعيش القرآن الكريم ويحياه كما قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يُقرِئوننا: أنَّهم كانوا يستقرِئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلَّموا عَشْر آيات لم يخلِّفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلَّمنا القرآن والعمل جميعًا[٢].

وقال فريق: إنَّ القرآن جاء بلغة متحدية للخلق كافة، فهي لغة متعالية، لا يسهل على كثير من البشر فهمها ومعرفتها إذا لم تُفسر لهم وتُشرح، وأنَّ الشرح والتفسير لا ينافي كونه مبينًا وبيّنًا، وكون آياته بيّنات ومبيّنات.

ولكن سلوك رسول الله ﷺ وعدم قيامه بوضع تفسير للقرآن خارج عمله به يؤيد ما ذهب إليه الأولون، وإذا ذهبنا إلى كتاب التفسير في صحيح البخاري لا نجد فيه أحاديث مرفوعة إلى النبي (ﷺ) في التفسير إلا حوالي ثمانية وثمانين حديثًا[٣]، ولا شك أنَّه لو فسر رسول الله ﷺ القرآن تفسيرًا بالمعنى الاصطلاحي لاحتجنا إلى أن نرى ما لا يقل عن ستة آلاف ومائتين وثمانية وثلاثين حديثًا في التفسير، إذا فسر كل آية بما يماثلها في عدد الكلمات والألفاظ، وإذ لم نجد شيئًا كهذا فذلك يدل على أنَّ عمله بالقرآن ومنهجه ﷺ في

---

[٢] رواه الطبري بسنده، انظر جامع البيان في تأويل القرآن ١/٨٠، المؤلف: مُحَمَّد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ).

المحقق: أحمد مُحَمَّد شاكر، الناشر: مؤسّسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠، وقال المحقق: هذا إسناد صحيح متصل. أبو عبد الرحمن: هو السلمي، واسمه عبد الله بن حبيب، وهو من كبار التابعين. وقد صرح بأنَّه حدثه الذين كانوا يقرئونه، وأنَّهم "كانوا يستقرئون من النبي ﷺ"، فهم الصحابة. وإبهام الصحابي لا يضر، بل يكون حديثه مسندًا متصلا.

[٣] يقول ابن حجر في "فتح الباري" في خاتمة ما كتب عن كتاب التفسير للبخاري، اشتمل كتاب التفسير على خمسمائة حديث، وثمانية وأربعين حديثا من الأحاديث المرفوعة، وما في حكمها، الموصول من ذلك أربعمائة حديث، وخمسة وستون حديثا، والبقية معلقة وما في معناه، المكرر من ذلك فيه، وفيما مضى أربعمائة وثمانية وأربعون حديثا، الخالص منها مائة حديث، وفيه من الآثار عن الصحابة فمن بعدهم خمسمائة وثمانون أثرا، تقدم بعضها في بدء الخلق وغيره، وهي قليلة، وافقه مسلم على تخريج بعضها، ولم يخرج أكثرها؛ لكونها ليست ظاهرة في الرفع والكثير منها من تفاسير ابن عباس، انظر المجلد الثامن من فتح الباري، ص٧٤٣

تعليم الناس القرآن والعمل به معًا أغناهم عن التفسير والمفسّرين، إضافة إلى فهمهم للغة القرآن ولسانه.

وإذا كان المتأخرون قد أقبلوا على ممارسة التفسير وتفننوا في أنواعه لأسباب مختلفة ففسروا بالمأثور والمعقول واللّغات، وبرزت أنواع من تفاسير الفرق والمذاهب والتفاسير الباطنيّة وما إليها، فذلك عمل الخلف لا يحتج به فيقوم دليلًا على ضرورة التفسير أو حاجة القرآن الكريم إليه، فالقرآن لا يحتاج إلى التفسير بالمعنى الاصطلاحيّ، ويكفي للأجيال التي جاءت بعد جيل التلقي تفسير القرآن بالقرآن، فالقرآن يفسر بعضه بعضًا، والذين تابعوا منهج رسول الله ﷺ وجدوه دائمًا يفسر القرآن بالقرآن، ويعين الناس على فهمه أدق فهم وأحسنه وأصلحه بهاتين الوسيلتين، تعليمهم العمل به، ولفت أنظارهم إلى أنَّ بعضه يبين بعضه، وآياته يفسر كل منها الآيات الأخرى.

وحين اضطربت السبل في زماننا هذا، وتشتت الأمَّة، وفرّق الناس دينهم وصاروا شيعًا، ويئس كثيرون من إمكان إعادة بناء هذه الأمَّة ولمّ شملها والقضاء على فرقتها بكتب التفاسير ومناهج المفسيرين الموجودة التي توارثناها ، صار لابد من حسم هذا الأمر، وتقديم بيان شاف للناس حوله، فاخترنا منهج رسول الله ﷺ ألا وهو "تفسير القرآن بالقرآن"، وربط سلوك وعمل سيدنا رسول الله ﷺ بالقرآن المجيد؛ ليعلم الناس أنَّ رسول الله ﷺ كان يتلو على الناس الكتاب ويعلمهم العمل بآياته، وتطبيق ما جاء به، وتحويله إلى ممارسة حياتيَّة؛ ولذلك عدنا إلى إحياء ذلك المنهج النبويّ، وبذل كل الجهد والطاقة لبيان القرآن بالقرآن؛ لنحيي منهج رسول الله ﷺ، فنعلم الناس الكتاب بعد أن نتلوه عليهم حق التلاوة، ونزكيهم به، فذلك المنهج هو المنهج الذي بنيت هذه الأمَّة به، وعلى دعائمه قام عمرانها.

وإننا نقدم للأمة جُهدنا هذا؛ سائلين العلي القدير السداد والتوفيق في هذه المهمة الشاقة، راجين أن تتضافر جهود أهل العلم والمخلصين من أبناء هذه الأمَّة على إحياء هذا

المنهج، ورد المسلمين إليه ردًا جميلًا، فهو وحده المنهج الكفيل بحماية المقاصد، وتحقيق الأهداف، وتمكين خلف هذه الأمَّة من سلوك ما كان عليه سلفها وجيل التلقي الخير من أبنائها، والله ولي التوفيق.

منهجنا في التفسير :

منهجنا في التفسير هو:"التدبُّر"، وتفسير بعض القرآن بالبعض الآخر.أي: تفسير مُحكمه بمفصّله. فالقرآن الكريم ينغلق وينفتح حسب الاستعداد الإنسانيّ وإقبال الإنسان عليه، وطهارة قوى وعيه.

مفهوم التدبر:

والتدبُّر هو التفكر فيما وراء الظواهر، ومعرفة أدبار الأمور، وعواقبها، وما لا تراه العين للوهلة الأولى منها، فالقرآن خطاب مفتاحه التدبَّر أي أن يقبل القارئ المؤهّل الذي هيّأ قوى وعيه ووسائل إدراكه لتدبُّر القرآن الكريم بعقل علميّ لديه من المعرفة والاستعدادات ما يعينه على تدبُّر هذا الخطاب، ومعرفة المراد به.

إنَّ "المتدبِّر" قد تلقَّى خطابًا في قول ثقيل متحد معجز ذي مواصفات خاصَّة لا يشاركه فيها أي خطاب آخر، وله مضمون ورسالة وهدف ومقاصد وغايات وعواقب. وهو خطاب صاغه مخاطِب يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير. وقد فصَّله على علمه المحيط بكل شئ، فهو علم مطلق منزَّل من لدن العليم الخبير، الذي أحاط بكل شيء علمًا، فلا يتوقع من المتدبِّر أن ينشغل بكل تلك التفاصيل التي قد ينشغل بها المتعاملون مع الخطاب البشريّ أيًا كان.

الواقع والمثال، ومستويات التكليف:

سبق أن نبَّهنا إلى أنَّ القرآن قد استوعب ثنائيَّة "الواقع والمثال"، وتجاوزها، ولتوضيح مرادنا بالواقع والمثال نقول: إن الله (سبحانه وتعالى) حين أمر بأمور وفرض فرائض، وكلف الناس بها لم يكن غائبا عن علمه طاقات الانسان وقدراته، وتأثير علاقاته بالزمان والمكان في كثير من شئونه وشجونه. ولذلك نجد في كثير من التكاليف مستويات متعددة، فهناك مستوى عال وهو المستوى الأول الذي يجب على الإنسان أن يحاول أن يصل إليه وهو يؤدي ما كلفه الله به وقد تقصر طاقاته دونه.

وهناك مستويات أقل.

وقد لوحظت أحوالهم جميعًا في هذا الخطاب القرآنيّ؛ ولذلك قيل: "حسنات الأبرار سيئات المقربين". فالصلاة على سبيل المثال، مستواها الأعلى أن تؤدى في وقتها بخشوع تام وقنوت وإخبات لله (عزّ وجلّ)، مع إسباغ الوضوء، والطمانينة في كل حركة وسكنة، وعدم الغفلة عن الله في أيّة لحظة من لحظاتها، وذلك شأن المقربين وتلك صلاة النبيين.

ومستويات أخرى دون ذلك.

فالمستوى الأول لا يطيقه إلا ذلك الصنف الذي هيئه الله لإقامة الصلاة، أما المستويات الأخرى فهي في متناول الكثيرين من عباد الله.

ولكن ينبغي لهؤلاء أن يبذلوا جهدهم، ويحاولوا ما استطاعوا أن يبلغوا المستوى الأول ويصلوا إليه. والمستوى الأول هو الذي يحقق مقصد الخالق من الخلق، ويحقق في الحكم أهدافه ومقاصده بشكل كامل، وفي ذلك يقول "ابن الفارض" في تائيَّته:

فلو خطرت لي في سواك إرادة على خاطري سهواً قضيت بردتي

فكأن المستوى الأول، هو مستوى المثال، الذي يضعه الله تبارك وتعالى لنا لنحاول بلوغه والوصول إليه، وأما المستويات الأخرى ، فمستويات يستطيع الإنسان العادى بلوغ أي منها بشيء من التركيز، وبذلك يمكن أن يقرب فهم الفارق بين الواقع والمثال في هذا المجال.

إنّ القرآن الكريم خطاب يمكن أن ينزل على القلب مباشرة فيشتبك مع قوى وعي السامع والمخاطب بشكلٍ مباشر، ووعي القارئ المخاطب هو الذي سيستقبله. وحين يبدأ وعي القارئ بالتفاعل معه للكشف عمَّا بين يديه وما خلفه سوف يفرض هذا الخطاب القرآنيّ المتعالي المتنزِّل على ذهن المتلقي تساؤلات كثيرة تختلف تمامًا عن التساؤلات التي يثيرها أي خطاب آخر.

ولعلَّ أهم الاختلافات بين ما يثيره الخطاب القرآنيّ وأيّ خطاب آخر غير الخطاب القرآني، ما قد يثار من تساؤلات حول ما في ذهن مرسِل الخطاب من مقاصد وغايات أو مطامع يطمع أن يطلب المرسِل إلى المرسَل إليه القيام بها.

في حين أن المخاطب – بالخطاب القرآنيّ– يتَّجه للبحث عن دور له في ذلك الخطاب يُعمِل فيه ذهنه وخياله، ويمارس فيه نشاطه الإنسانيّ.

إنَّ المتلقِّي الأول للقرآن المجيد ﷺ قام بتطبيق القرآن واتِّباع كلّ ما جاء فيه حتى صار ﷺ وكأنَّه نسخة بشريَّة للقرآن المجيد، فكان خلقه القرآن، وسلوكه القرآن، وتصرفاته – كلّها – اتِّباع للقرآن، [٤]وبذلك رسم "منهج الإتِّباع" بدقَّة لا مزيد عليها ليتمكَّن الخلق من التأسّي به ﷺ .

[٤] عن سَعْدِ بن هِشَامِ بن عَامِرٍ قال: (أَتَيْتُ عَائِشَةَ فقلت يا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أخبرني بِخُلُقِ رسول اللَّهِ ﷺ قالت كان خُلُقُهُ الْقُرْآنَ أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَوْلَ اللَّهِ عز وجل (وَإِنَّكَ لعلي خُلُقٍ عَظِيمٍ) قلت فإني أُرِيدُ أَنْ أَتَبَتَّلَ قالت لاَ تَفْعَلْ أَمَا تَقْرَأُ (لقد كان لَكُمْ في رسول اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) فَقَدْ تَزَوَّجَ رسول اللَّهِ ﷺ وقد وُلِدَ له) مسند أحمد بن حنبل ج٦:ص٢٤٦٤٥/٩١

ولكن المتأسِّين به مهما اجتهدوا فإنَّهم لن يبلغوا مستوى الإتِّباع الدقيق السليم إلا إذا حالفهم التوفيق الإلهيّ؛ ولذلك فإنَّ المؤمنين يعملون على أن يحوِّلوا واقعهم إلى واقع تتجلَّى فيه أنوار القرآن وهدايته، لتُشاهد التحوّلات التي أحدثها القرآن ويحدثها في بيئاتهم التي سوف تساعد مع المجتمع على إبراز كيانات اجتماعيَّة تهتدي بهداية القرآن، وتستظلّ بأنواره – وآنذاك – تتشكل شخصيَّة ذلك المجتمع في هيكل مؤطّر بمجموعة العلاقات الاجتماعيَّة المتغيِّرة المتحرِّكة في إطار "المرجعيَّة القرآنيَّة وقيمها الحاكمة".

وهنا يكون نصيب كل فرد في ذلك المجتمع مماثلًا لنصيب الأراضي المتنوّعة من الغيث، فهناك أرض تهتزّ وتربو وتنبت من كل زوجٍ بهيج ، وهناك أراض تحتفظ بالماء ليستفيد به الإنسان والحيوان والنبات، وهناك أراض أجادب لا تنبت زرعًا ولا تمسك ماءً وهناك وهناك.[٥]

وهنا يأتي دور "التدبُّر"؛ فالتدبُّر ضروريٌّ ليقوم بقيادة القارئ للتّفاعل مع الخطاب القرآنيّ، ومعرفة دوره بالنِّسبة إليه. "فالتدبُّر" يقود القارئ إلى التّفاعل مع الخطاب. وهنا يجد القارئ نفسه وجهًا لوجه في مواجهة الخطاب فيستدعي التاريخ وآفاق الفهم، ويؤسس للعلاقة مع الخطاب. إنَّ "التدبُّر" يجعل القارئ يبحث عن المعنى الذي ينشأ نتيجة تفاعله مع الخطاب لا عن المعنى "الكامن أو المكنون" فيصبح المعنى –آنذاك–"أثرًا" تمكن ممارسته لا "موضوعًا" يمكن تحديده.

إنَّ من شأن تدبّر القرآن – بإذن الله – وتفسير القرآن بالقرآن، وتلاوة القرآن حق التلاوة، وحسن ترتيله وإقامة الصلاة به، تحقيق كل تلك النتائج المبتغاة التي تجعل القرآن

---

[٥] عن أبي مُوسَى عن النبي ﷺ قال" مَثَلُ ما بَعَثَنِي الله بِهِ من الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ منها نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ منها أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ الله بها الناس فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ منها طَائِفَةً أُخْرَى إنما هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مَثَلُ من فَقُهَ في دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ ما بَعَثَنِي الله بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ من لم يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا ولم يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ بِهِ » صحيح البخاري كتاب العلم بَاب فَضْلِ من عَلِمَ وَعَلَّمَ ج١:ص٧٩/٤٢

شفاءً لما في الصدور وهدى ورحمة وموعظة ونورا وبصائر، لا تشحذ أسماع المتدبرين فحسب بل تمنحها قدرة التمييز، قال (عزّ وجلّ): ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾ (الزمر:١٨).

وعند ذلك لا يمكن للشيطان أن يقيم حجبًا بين حكم القرآن وأنواره وبين قوى الوعي الإنسانيّ؛ لذلك فإنَّ التدبُّر ضرورة لبناء العقل وإنماء قوى الوعي قرآنيًا، فهو الذي يهيئ الإنسان وقواه العاقلة لتلك المهام العظيمة التي تنتظر الإنسان في هذه الحياة: مهام تحقيق التوحيد والتدثُّر بالتزكية، والتحلي بالعمران، وإقامة بناء الأمَّة، وحسن القيام بالدعوة، وبدون ذلك تكون القراءة هذرمة، ويكون الاستماع قليل الأثر.

نرجو الله أن يوفقنا لحسن تدبُّر كتابه، ليكون القرآن ربيع قلوبنا، وجلاء همومنا وأحزاننا، ونور بصائرنا وأبصارنا، إنَّه سميع مجيب.

تمهيد

سورة العنكبوت:

وصفها: سورة مكيَّة

عدد آياتها ٦٩

عدد الكلمات: ٩٨٢

عدد الأحرف: ٤٢٠٠

هي سورة مكيَّة –كلها– على الأرجح، وهي من أواخر ما نزل بمكة، لذلك كان فيها ما يشبه الخاتمة لما جرى في العهد المكيّ من اضطهاد وفتنة للمؤمنين بطريقة ملخصة، تكاد تلخص ما تعرَّض له المؤمنون وتهيئ الأذهان لمرحلة أخرى تختلف فيها طبيعة التحديات والمواجهات بين معسكر الإيمان ومعسكرات الشرك والكفر وأهله، ومنهم من عُرِفوا بأهل الكتاب الذين كان يتوقع منهم أن يكونوا أحلافًا لأهل الإيمان وحملة الرسالة الخاتمة، لولا البغي والحسد اللذان ملآ قلوبهم. لقد كان بغيهم أشبه ببغي ابن آدم على أخيه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ﴾ (المائدة:٧٢)

والسورة –كلها– تفصيل لما أُحكم في سورة الفاتحة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة:٦-٧). ولذلك كانت خاتمتها: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت:٦٩)، فكأنَّها تقول من أراد الاهتداء إلى الصراط المستقيم فليجاهد فى الله حق جهاده، وعلى جميع المستويات، فيبدأ بجهاد النفس ويتخلص من التبعية والتقليد والعقلية الآبائية، ثم بجهاد الدفع والتدافع وجهاد الطلب. وإذا كانت بداية سورة البقرة قد بيَّنت مصدر الهداية: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(البقرة:٢)، فإنَّ هذه السورة قد بيَّنت بعض وسائل هذه الهداية.

عمود السورة:

عمود هذه السورة ومحورها الأساس "الإيمان والتحديات التي تواجه حملته "، في جميع جوانبها ومستوياتها، فتبيّن الفتنة وتتناول دروبًا منها لتتوطن نفوس المؤمنين وتتهيأ لاستقبال ما سَيُبْتَلون به من فتن من سائر مخالفيهم في الإيمان، وخصومهم الذين لا ينقمون منهم إلا أنَّهم آمنوا بالله حين كفر الخصوم، ووحدوه –سبحانه– حين أشرك به الخصوم، وأخلصوا

دينهم لله حين خلط خصومهم الشرك والإيمان، ومزجوا بين العمل الصالح والعمل الخبيث. فبها بُدِئَتْ وبجانب منها حُتمت.

فسنَّة الفتنة وابتلاء المؤمنين سنَّة ثابتة مستمرة: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤١)، وتنبه خاتمة السورة على أنَّ الجهاد ينبغي أن يُفهم في إطار الفتنة والابتلاء وأنَّه ينبغي أن يكون سبيلًا إلى الهداية فهو يخالف "الفتح" الذي يكون هدفه التغلُّب على الخصم وكسر شوكته وإذهاب ريحه، أمَّا هدايته فقد لا تخطر على بال الفاتحين، وهنا يظهر الاختلاف الحقيقي بين الجهاد بمفهومه القرآنيّ والغزو والقتال ومايترتب عليهما، ولذلك قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت:٦٩) وليس سبلهم هم، فالنتائج التي يوصل الجهاد إليها نتائج تحظى بعناية الله -جل شأنه- ومباركته، وأمَّا الغزو والفتح فهي أمور أخرى.

مؤشرات في المنهج[٦]:

وهناك وجه آخر من أوجه المقارنة بين سورة العنكبوت وسورة البقرة، فسورة البقرة نبهت إلى بعض صفات المؤمنين المتقين ومنها ارتباطهم بالله -جل شأنه- وسؤاله -تبارك وتعالى- اللُّطف والتخفيف وعدم التكليف بما لا يُطاق أو يَصْعُب، واعتبار ذلك جزءًا من أهم وسائل تكوين مَلَكَة التقوى في الإنسان حتى يعبد الله كأنَّه يراه. وفي هذه السورة التفات نحو الجغرافيَّة، فيبيَّن -جلّ شأنه- نعمته على الإنسان بهذا التنوع في الجغرافيا، فهناك حرم آمن امتن عليهم بتمكينهم منه، فقال -تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا ﴾ واعتبر الجهاد

[٦] انظر كتابنا "الوحدة البنائيَّة للقرآن المجيد"، مكتبة الشروق الدوليَّة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ، مارس ٢٠٠٦م، حيث تم هناك تفصيل رؤيتنا لأحد أهم ملامح الخطاب القرآنيّ وما يحتمه من محددات منهجيَّة خاصَّة في القراءة. كما نشرنا في إبريل ٢٠١٢، مقالًا نفسر فيه آيات القتال في القرآن وفقًا لهذا المنهج وانطلاقًا من إيماننا بوجود وحدة بنائيَّة للقرآن وخلافًا لكل المناهج التجزيئيَّة للقرآن والتي تقرؤه عضينًا بين ناسخ ومنسوخ، فهذا المقال هو تطبيق عملي لهذا المنهج.

في الآية الأخيرة وسيلة لهداية العباد إلى سبل الله –جلّ شأنه– ويلفت النظر إلى أنَّ فيه إشارة إلى تعدد السبل: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ لينبهنا أنَّ الجهاد والمدافعة لا تنحصر في سبيل واحد، بل لها سبل عديدة، ذكر لنا بعضها وهيأ لنا الأسباب لاستنباط البعض الآخر ليدوم الأمن في الحرم ويستمر، وتُحترم الأرض المقدسة وتُحفظ لها مكانتها، ويعمل الإنسان المستخلَف بالمدافعة والمجاهدة كي يجعل من بقية أجزاء الأرض مسجدًا وطهورًا تشبه الحرم والأرض المقدسة إذا ما دخل الناس في السلم كافَّة واستجابوا لربهم وأقاموا الصلاة.

كما أنَّ فاتحة السورة بدأت بالأحرف المقطعة التي استهلت بها سورة البقرة، مما يشير إلى نوع من الترابط بين السورتين في بعض الموضوعات، ومن أبرزها

ما يعد بمثابة حتميَّة الفتنة والابتلاء للمؤمنين ليميز الله الخبيث من الطيب، وهو الذي أشارت إليه الآية: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة:٢١٤)، وكذلك الإشارة إلى فتنة المشركين للمؤمنين وترابطها مع آيات سورة البقرة وآية العنكبوت، وبعض آيات سورة الحج ونحوها، وكذلك سورة آل عمران في الآية: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٢)، ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمرن:١٥٤)، ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران:١٦٥)، ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ

الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:١٧٩)،

وحين تُضم هذه الآيات إلى بعضها وتُستحضر كاملة؛ فسيلحظ القارئ المتدبِّر كيف يفسر القرآن بعضه بعضًا في ترابط وإحكام، يُبرز تسلسل الأفكار التي توحي الآيات الكريمة بها وبدلالاتها وترابطها وانسجامها.

إنَّ سورة العنكبوت في آياتها الأولى تشير إلى الارتباط بتلك النتيجة؛ وهي أنَّ العاقبة بعد الفتنة انتصار الإيمان على الشرك، وانتصار المؤمنين على الكافرين، فجعجعة الكفر وأهله ليست نهائيَّة، وقدراتهم على الفتنة –فتنة المؤمنين– لها أجلٌ سوف تبلغه وتتوقف عنده شاء أهل الكفر أم أبوا، وما كان الله ليسمح بأن يُفتن المؤمنون به من أولئك المشركين والكفار لولا الحكمة البالغة في ذلك، ومتطلبات الإعداد لما لا يتحقق العمران والاستخلاف إلا به من تدافع، ولا يكتمل الابتلاء والتزكية إلا بحدوثه.

مناسبة السورة لما قبلها[٧]:

[٧] قال الإمام البقاعي في نظم الدرر: سورة العنكبوت مقصودها الحث على الاجتهاد في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعاء إلى الله –تعالى– وحده من غير فترة، كما ختمت به السورة الماضية، من غير تعريج على غيره –سبحانه– أصلًا، لئلا يكون مثل الفرج عند المتعوض عوضًا منه مثل العنكبوت، فهي سورة ضعف الكافرين وقوة المؤمنين، وقد ظهر تسميتها بالعنكبوت وأنَّه دال على مقصودها "بسم الله" الذي أحاط بجميع القوة فأعز جنده "الرحمن" الذي شمل جميع العباد بنعمة الأمر والنهي، "الرحيم" الذي ألزم أهل العرفان ذروة الإحسان.

لما ختم السورة الماضية بالحث على العمل للدار الآخرة، وأنَّ كل أحد محسن ومسيء مجزي بعمله، وبالإخبار بأنَّه –سبحانه– عالم بالسر والعلن، وبالأمر بالاجتهاد في الدعاء إليه وقصر الهمم عليه وإن أدى ذلك إلى الملال، وذهاب النفس والأموال، معللا بأنَّ له الحكم –سبحانه– لأنَّه الباقي بلا زوال، وكل ما عداه فإلى تلاشٍ واضمحلال، وأنَّه لا يفوته شيء في حال ولا مآل، قال أول هذه "الم" إشارة بالألف الدال على القائم الأعلى المحيط ولام الوصلة وميم التمام بطريق الرمز إلى أنَّه –سبحانه– أرسل جبريل إلى مُحَمَّد –عليهما الصلاة والسلام– ليدعو الناس بالقرآن الذي فرض عليه إلى الله، لتعرف بالدعوة سرائرهم ويتميز بالتكاليف ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ**﴾ (**مُحَمَّد: ٣١**).

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الإمام البقاعي، ج١٤، ص٣٨٥،٣٨٤، دار الكتاب الإسلامي، طبعة ١٤٠٤هـ،١٩٨٤م.

جاءت سورة العنكبوت عقب سورة القصص التي قصَّ الله -سبحانه وتعالى- علينا فيها نبأ موسى وفرعون، وهو نبأ من أنباء الصراع بين الحق والباطل، والتدافع بينهما، وحلقة من حلقات تلك السلسلة.

ومما يستفاد منها معرفة طبائع الاستبداد وآثاره الخطيرة عندما يتعالى الإنسان على نظرائه في الإنسانيَّة، وكيف يُفرِّق الناس فيستضعف طائفة ويستقوي بأخرى، ويفسد في الأرض ويستبد فيها وفي ساكنيها. وتذكر السورة لنا نماذج من استبداد السلطة وطغيانها، واستبداد أهل المال وطغيانهم، وبين الخاتمة والعاقبة يظهر كيف تكون العاقبة للمؤمنين بالله، المستقيمين على الطريقة، المهتدين بهداية النبيين، وأنَّ الله -سبحانه وتعالى- سيجعل الدار الآخرة للذين لا يريدون علوًا في الأرض ولا فسادًا، وسيجعل العاقبة دائمًا للمتقين ، وهذا رسول الله -ﷺ- الذي فرض الله عليه القرآن، بعد أن أُوذي وأُخرج من داره ومستقر عيشه مكة؛ تعهد الله -جلّ شأنه- أنَّه سيرده إليها ظافرًا منتصرًا، ويُذكِّره الله -جلّ شأنه- بأنَّه لم يكن يتطلع إلى أن ينزل عليه الكتاب، بل كان نزول الكتاب على قلبه رحمة من الله له وللعالمين -كافَّة- ولذلك ينهاه -جلّ شأنه- أن يخضع لأي تهديد أو وعيد، أو يضعف أمام أي ضغط يوجهه أولئك الكافرين إليه، ليصدوه عن آيات الله، ويأمره بالاستمرار في الدعوة إليه، وتجنب سبيل المشركين، وأن لا يدعو مع الله إلهًا آخر، فهو صلب دعوته وقوام رسالته، لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم والفصل بينك وبين خصومك وأعدائك، وإليه مرجعك ومردك ومرجعهم -جميعًا- وسوف تفرح بما أعددناه لك في حين يتحسَّر أولئك على ما فرطوا في جنب الله.

النجم[٨] الأول : من الآية الأولى حتى الآية ١٣.

﴿الم[٩] * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت: ١-٧).

تبين سورة العنكبوت أنَّ ما يفعله معسكر الشرك والكفر ضد النبيين والمرسلين وأهل الإيمان؛ ليس أمرًا مبتدعًا، وليس خاصًّا فلا يظن المسلمون أنه لم يتعرض له أحد غير رسول الله -ﷺ- ومن معه، بل هو سنَّة إلهيَّة شاملة للناس المؤمنين -كافَّة- ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ فالمؤمنون لا يُتركون لمجرد إعلانهم الإيمان؛ بل لا بد أن يُفتنوا ويُختبر إيمانهم بابتلائهم بالكافرين والشياطين -شياطين الإنس والجن- وهذه الفتنة جعلها الله -سبحانه وتعالى- سنَّة مرَّ بها من سبقنا، ونمر بها، ويمر بها من يلحقنا -أيضًا- وبذلك يثبت الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ويمتاز المجرمون المدعون للإيمان والمنافقون والكاذبون والمراءون، ويدرك أولئك الذين عملوا السيئات أنَّهم لن يسبقوا الله -جلّ شأنه-

[٨] لا نقصد بقولنا نجوم أنَّ ذلك هو التنجيم المأثور للسورة؛ بل قصدنا أن نقسم السورة إلى أقسام تتصل ببعضها وتنفصل بحسب موضوعاتها الأساسيَّة ومحاور اهتمامها.

[٩] تكلمنا عن معنى الحروف المقطعة في فواتح السور عند تفسيرنا لسورة البقرة فليرجع إليه.

بل الله غالب على أمره، وهم مقهورون بأحكامه، وأنَّ زعمهم أو دعواهم أن يسبقونا هي دعوى لا تقوم إلا على أساس الغرور والرغبة في الاستعلاء وما يمليه ضعف الإيمان وانتفاء اليقين على أصحابه.

وحين نستحضر قوله –تعالى-: ﴿**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ**﴾ (**آل عمران: ١٧٩**) وقوله تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ**﴾ (**المؤمنون:١١٥**)، والآية التي معنا: ﴿**الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ**﴾ (**العنكبوت:١-٢**)، وقوله: ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى**﴾ (**القيامة:٣٦-٣٧**)، ، نستطيع أن نرسم –من خلال هذه الآيات كلها- صورة كاملة، تنفي عن حياة الإنسان أي شيء يمكن أن يؤدي إلى شعورٍ بالعبثيَّة، أو إحساس بالعدميَّة، ذلك الشعور والإحساس الذي لا يمكن أن يُقاوَم إلا بمعرفة واستحضار الغائيَّة من خلق الإنسان، والحكمة في وجوده، فإدراك هذه الغائيَّة، ومعرفة هذه الحكمة، هي ما يمكن أن يساعد الإنسان على الخروج من حالة العبثيَّة والعدميَّة اللتين كثيرًا ما تستوليان عليه حينما تغيب عنه حكمة الحياة والوجود فيها، ويحملانه على الكسل، والانغماس في العبث وعدم الشعور بالمسئوليَّة[١٠] والغائيَّة من ذلك الوجود، التي تمنحها الغاية المقنعة، التي تجعل الإنسان فيها صاحب مهمة ورسالة وهدف، وغاية تجعل من حياته حياة تقوده إلى الجنَّة، وتحبط كل جهود الشيطان الذي يعد مدخل الإحساس بعبثيَّة الحياة وعدميّتها من أهم وأخطر مداخله.

وإذا فهم الإنسان الفتنة بحقيقتها وجوانبها المختلفة؛ فإنَّ ذلك سوف يُهَوّنُ عليه مصائب الدنيا من ناحيَّة، ويجعله قادرًا على تفسير كثير من الأحداث التي يصادفها،

[١٠] مثال الأبيات الشهيرة لإيليا أبي ماضي، أتيت لا أعلم من أين لكني أتيت، وهذه الأبيات الشهيرة هي من قصيدة الطلاسم لإيليا أبي ماضي شاعر المهجر، وهي في الجزء الأول من ديوانه الصادر عن دار العودة ببيروت، طبعة ٢٠١٥م، ص١٩١.

والمواقف التي تحيط به – ويفسرها تفسيرًا ملائمًا، لا يدفعه نحو الجبريَّة والاستسلام، ولا إلى ردود الفعل التي لا تنضبط بضوابط الشرع – من ناحية أخرى .

مفهوم الفتنة:

«الفتنة» مفهوم قرآنيّ من «فتن» أصلها اللساني إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته وإزالة ما قد يكون خالطه من معادن أخرى[11]، ومنه قوله –جلّ شأنه–: ﴿**يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ**﴾ (**الذاريات:١٣**) تشبيهًا لأهل النار الذين خالط فِطَرهم نزغ الشيطان، فأبعدهم عن الصراط، وفتنتهم على النار تجعلهم أكثر أسفًا وألما على اتّباعهم همزات الشياطين، وتخلّيهم عن نداءات الفطرة السليمة التي غطّوا عليها وطمسوها بالكفر والشرك والمعاصي. ويقول الله –جلّ شأنه– لهم: ﴿**ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ**﴾ (**الذاريات:١٤**) أي جزاء تعذيبكم عبادي في الدنيا، لصدّهم عن السبيل. وقد قال –تعالى– في المنافقين: ﴿**لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾ (**التوبة:٤٨–٤٩**). ويخاطب الله موسى –عليه السلام– وهو يصنعه على عينه: ﴿**إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى**﴾ (**طه:٤٠**) أي اختبرناك اختبارًا لتكون خالصًا لما اخترناك للقيام به من تحرير بني إسرائيل، وإخراجهم من ذلّ العبوديَّة لفرعون مصر إلى عزّ العبوديَّة لنا ومن استبداد فرعون إلى حاكميَّتنا وعدلنا. والدنيا فتنة أي دار فتنة واختبار: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ (**الأنبياء:٣٥**). و﴿**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ

[11] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، طبعة مكتبة نزار مصطفى البارز، القاهرة، ص٤٨١.

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:١٩١) والمقصود: أن تعذيب المؤمنين لإكراههم على تغيير دينهم أشد من القتل. وشرع القتال دفاعًا عن حريَّة العقيدة، ولمنع هذا النوع من الفتنة: **﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:١٩٣) {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[الأنفال: ٣٩]** أي: فَيُفتن الناس ويُعَذَّبوا لمجرد ممارستهم حرية اختيار الدين. و"يكون الدين لله" لا لأمر يفرضه المستكبرون على المستضعفين: **﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأرض وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (يونس:٨٣)** أي خوفًا من أن يعذّبهم لإكراههم على العودة إلى عبادته. **ومنه قوله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (البروج:١٠)**. وتأتي «الفتنة» بمعنى الإلجاء إلى الانصراف عن شيء ما بالإكراه أو بالتزيين والإغراء: **﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلا﴾ (الإسراء:٧٣)**، **﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (المائدة:٤٩)**. ومن الفتنة تداول أحوال الإنسان بين النّعم والنّقم في الدنيا لأنَّها تجري مجرى الاختبار والتمحيص للبشر: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال:٢٨)**. وقد تُظهر الفتنة في هذا المجال أنَّ بعض الأزواج والأولاد أعداء من حيث تأثيرهم السلبيّ على الأزواج والآباء وإسقاطهم في الفتنة: **﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التغابن:١٤)**. والناس –جميعًا– في هذه الحياة الدنيا في حال ابتلاء: **﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا﴾ (الملك:٢) ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾**

(العنكبوت: ١–٢)، ﴿**وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ**﴾ **(المائدة: ٧١)**. و«المفْتُون» من استجاب لدعاوى الفتنة فسقط فيها. ﴿**بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ**﴾ **(القلم: ٦)**. وهذه الاستعمالات المتنوعة في لسان القرآن تنبِّه إلى أنَّ مادة هذا المفهوم اللسانيَّة دائرة به بين «**الاختبار والابتلاء والتمحيص والصرف عن الشيء والإضلال عنه والعذاب والرخاء ولوازم بعض هذه الكلمات أو المصطلحات ومقدِّماتها**».

{ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا} في إيمانهم علم مشاهدة **{وليعلمن الكاذبين}** في ادعائهم الإيمان. فالفتنة والابتلاء والتدافع سنن إلهيَّة ثابته، لها غايات وأهداف ومقاصد لا بد من إدراكها وملاحظتها، فيدرك المؤمنون طبائع التدافع بينهم وبين خصومهم في الحاضر وفي المستقبل ويهيئوا أنفسهم ويعدوا عدتهم لمواجهة التحديات، فلا يفاجأون فيها.

هل للمؤمن أن يطلب الفتنة:

والفتنة وإن كانت سنَّة من سنن الله –كما ذكرنا– فليس للمؤمن أن يسعى إليها أو يطلبها أو يستدرج الآخرين بحيث يدفعهم إلى أن يقوموا بفتنته، فهي كأي بلاء وابتلاء، إذا أمكن للمؤمن ألا يتعرض لها فلا ينبغي أن يتصدى أو يستشرف لها[١٢]، لكنَّها لو لم تحدث لأي سبب – غير المداهنة ومماألأة أعداء الله أو موافقتهم– فلا ينبغي السعي إليها، فمن عُوفي منها فليحمد الله، ومن أُبتلي بها صبر وصابر ووطَّن نفسه على أنَّها سنَّة من سنن الله في النبيين والمؤمنين والمصلحين والدعاة وفريق الذين أنعم الله عليهم. فعلى من أُبتلي بها أن يستعين بالله على تجاوزها بالصبر والصلاة وما يناسبها من فنون التحمل واكتساب القدرة على إدارة الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل.

[١٢] وفي الحديث: (أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ في بَعْضِ أَيَّامِهِ التي لَقِيَ فيها الْعَدُوَّ انْتَظَرَ حتى مَالَتْ الشَّمْسُ ثُمَّ قام في الناس فقال أَيُّهَا الناس لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فإذا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ ثُمَّ قال اللهم مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَمُجْرِيَ السَّحَابِ وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عليهم). صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير بَاب لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ ج٣/ص١١٠١/ ٢٨٦١

هل لمن فتن حق الانتقام ممن فتنوه؟:

ومن الفتنة والسقوط فيها أن يقع أي انحراف في سلوك المؤمن وتجاوز ما أُمر به، فالمؤمن محور تفكيره يدور كله حول الإصلاح وهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فهو لا يبغض الناس ولا يحقد ولا يستعلي عليهم، ولا يريد علوًا في الأرض باسم الإسلام ولا فسادًا، بل يريد الإصلاح ما استطاع، وقد يوفقه الله لذلك، وقد لا يصادف التوفيقُ جهوده، وفي سائر الأحوال فليس له أن يبتكر عند الفتنة وسائل تقوم على ردود أفعال لشخصه، فيُكَفّر من فتنوه بحق وبغير حق، ويغلو في معاداته لهم، فالصادق المصدوق—صلى الله عليه وآله سلم– لم يكن يتمنى الهلاك لمن كُلِّف بدعوتهم، بل كان يتمنى لهم البقاء لعل الله يخرج من أصلابهم من يُوحِّد الله، وكان يعتذر لهم، فعن عبد الله بن مسعود ـ ﷺ ـ قال :(كَأَنِّي أَنْظُرُ إلى النبي ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا من الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ وهو يَمْسَحُ الدَّمَ عن وَجْهِهِ وَيَقُولُ اللهم اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)[١٣]، فَغُلُوّ الغالين وتحولهم إلى مُكفِّرين وانتقاميين ينزع عنهم صفة الدعاة المصلحين، ويباعد بينهم وبين التأثير في الناس، وقصة «أصحاب الأخدود» التي وردت في كتاب الله وشرحها رسول الله–ﷺ–[١٤] شاهد ومثال على أولئك

---

[١٣] صحيح البخاري كِتَاب الْأَنْبِيَاءِ باب حَدِيثُ الْغَارِ ج٣:ص١٢٨٢/٣٢٩٠

[١٤] روى مسلم –بسنده– عن صهيب، أن رسول الله ﷺ قال: "كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر، قال للملك: إني قد كبرت، فابعث إلي غلاما أعلمه السحر، فبعث إليه غلاما يعلمه، فكان في طريقه، إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه، فأعجبه فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر، فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرا، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما هاهنا لك أجمع، إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحدا إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل، فقال: إني لا أشفي أحدا، إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمئشار، فوضع المئشار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المئشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به، فقال:

الذين جعلوا الإصلاح هدفهم، والدعوة والجهاد بالتي هي أحسن وسيلتهم، فنبذوا العنف والكراهية وانطلقوا يدعون إلى الله حبًّا في الله، ورغبة في إنقاذ عباده من أحابيل الشيطان ووساوسه، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ولا شك أنَّ من يعمل على إخراج الناس من الظلمات إلى النور يحمل قلبه ووجدانه لهم حبًّا لا مراء فيه، هذا الحب هو الكفيل بتهيئة عقول المدعوين وقلوبهم، وصدورهم؛ لقبول دعوة الداعي إذا دعاهم، ففقه التعامل مع الفتنة في القرآن فقه غنيّ مليء بالثراء إذا أُستنبطت آدابه وأحكامه من كتاب الله الذي قصَّ علينا قصص النبيين والمرسلين الذين أمر الله رسوله أن يهتدي ويقتدي بهداهم، ومن اطلع على فقه التعامل مع الفتنة في الكتاب يدرك بُعد الشُّقة بين ممارسات الكثيرين من السائرين في موكب الدعوة عندما تتداهمهم الفتن وبين هدي القرآن في التعامل معها وهو يروي لنا سيرة رسول الله —ﷺ— ومَنْ قبله من الرسل والأنبياء الذين وجب علينا أن نهتدي بهداهم وأن نقتدي بهم.

إنَّ رسول الله —ﷺ— حين فتح مكة ونظر في وجوه القوم الذين فتنوه وعذبوا أصحابه حتى استشهد بعضهم تحت وطأة التعذيب والفتنة سألهم وكل أنظارهم معلقة على شفتيه الكريمتين "ماتظنون أنِّي فاعل بكم؟" قالوا "خيرا أخ كريم وابن أخ كريم! [١٥]" يقولون هذا لكن كلًا منهم يكاد قلبه يسقط بين قدميه تحسبًا وخوفًا مما سينطق به –عليه الصلاة والسلام– لأنَّهم يعلمون أكثر من أي أحد آخر ألوان العذاب الذي ساموه وأهله وأصحابه بها سنين عددًا. أمَّا العفو فلم يكن أحد منهم يتوقعه أو يفكر فيه لأنَّهم لم يفهموا معنى النبوة والرسالة بعد، ولم يدركوا حقيقة كونه رسولًا منهم ولم يفقهوا حقيقة:**{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ**

اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهما من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله، رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فأتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك، فخدت وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك على الحق "

صحيح مسلم كِتَاب الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ بَاب قِصَّةِ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ وَالسَّاحِرِ وَالرَّاهِبِ وَالْغُلَامِ ج٤/ص٢٢٩٩/ ٣٠٠٥

[١٥] سنن البيهقي الكبرى جماع أبواب السير باب فتح مكة حرسها الله تعالى ج٩/ص١١٨/١٨٠٥٥

عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} التوبة: ١٢٨، ويستطيع الإنسان أن يقدر مشاعرهم في تلك اللحظة التي نطق رسول الله –ﷺ– فيها: "اذهبوا فأنتم الطلقاء[١٦]" وهنا عادت الحياة إلى نفوسهم، وشعروا شعور من عادت إليهم الحياة بعد موت.

والرسول –ﷺ– إمام الدعاة وخاتم النبيين والمرسلين يعرف أنَّ فتنة الأنبياء والدعاة سنة إلهيَّة تندرج في إطار التكوين والتدريب والإعداد لمراحل تالية وذلك يزيل من نفس المؤمن أي شعور بالرغبة في الانتقام لنفسه أو للمؤمنين لأنَّ الرسالة التي يحملها أكبر منه ومن الذين فتنوه فانصرف بعد النصر إلى التمكين للرسالة والإرساء لدعائم بنائها ووضع استراتيجياتها وخطط تبليغها وإيصالها وقدم رسول الله –ﷺ– أروع الدرس للبشريَّة وهو ينادي في أهل مكة (من دخل الكعبة فهو آمن ومن دخل بيته وأغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن) [١٧] وكأنَّه يريد أن يُدْخل الأمن والطمأنينة إلى كل نفس ودخل مطأطئًا رأسه متواضعًا وهو يعلم الناس آداب الدخول إلى الحرم ويقول "إنَّما أحلت لي ساعة من نهار[١٨]".

ثم قال تعالى: {أم حسب الذين يعملون السيئات} الشرك والمعاصي {أن يسبقونا} يفوتونا فلا ننتقم منهم {ساء} بئس {ما} الذي} يحكمون} هو حكمهم هذا {من كان يرجو} يخاف { {لقاء الله فإن أجل الله} به {لآت} فليستعد له {وهو السميع} لأقوال العباد {العليم} بأفعالهم.

وهنا ينتقل السياق ليؤكد –جلّ شأنه– على الذين يرجون لقاءه، وعلى أولئك الذين لا يرجون لقاءه، أنَّ أجلّ لقاء الله آت وهو السميع لكل ما يقول هؤلاء لأولئك، وهذه الآية

---

[١٦] المصدر السابق

[١٧] سنن أبي داود كِتَاب الْخَرَاجِ وَالْإِمَارَةِ وَالْفَيْءِ بَاب ما جاء في خَبَرِ مَكَّةَ ج٣:ص١٦٢/ ٣٠٢٢

[١٨] عن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النبي ﷺ قال (إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ فلم تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ولا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لي سَاعَةً من نَهَارٍ لَا يُخْتَلَى خَلَاهَا ولا يُعْضَدُ شَجَرُهَا ولا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا ولا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا إلا لِمُعَرِّفٍ وقال الْعَبَّاسُ يا رَسُولَ اللَّهِ إلا الْإِذْخِرَ لِصَاغَتِنَا وَقُبُورِنَا فقال إلا الْإِذْخِرَ) صحيح البخاري أَبْوَابُ الإحصار وجزاء الصيد بَاب لَا يُنَفَّرُ صَيْدُ الْحَرَمِ ج٢:ص٦٥١ /١٧٣٦

كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ**﴾ (**يونس:٧**) وقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا**﴾ (**الفرقان:٢١**). فهذه كلمات جاءت في لسان القرآن بمعنى وفي لسان العرب بمعانٍ أخرى، لذلك لا بد للمتدبر للقرآن من ملاحظة الفروق الدقيقة بين معاني الكلمات في لسان القرآن ومعانيها في لسان العرب وطرائق القرآن في استعمالها وطرائق العرب[١٩].

السنن الإلهيَّة:

أولا : المجاهدة :

{ومن جاهد} جهاد حرب أو نفس **{فإنما يجاهد لنفسه}** هذا تأكيد منه –جلّ شأنه– أنَّ أولئك الذين اختاروا الجهاد في سبيل الله – وذلك بتزكية أنفسهم أو لإزاحة أعداء الله وأولياء الشيطان من طريق قيادة البشريَّة والسيَّادة عليها لتستقيم البشريَّة، وتعتدل الحياة – إنَّما يجاهدون لأنفسهم، فتزكيَة نفوسهم وتزكيَة الحياة والبيئة من حولهم إنَّما عائدها إليهم ، ولإيجاد الحياة الطيبة لهم، والحيلولة دون سيطرة الظالمين والمنحرفين على شؤون الحياة وشجونها، وهؤلاء يجزيهم الله أحسن الذي عملوا، فيختار الله –جلّ شأنه– لهم من أعمالهم أعلاها وأحسنها ليجازيهم بها، **{إن الله لغني عن العالمين}** فليس بحاجة إلى جهادهم، **{والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم}** والذين جاهدوا وآمنوا وعملوا

[١٩] حاولنا في كتاب "لسان القرآن" تحديد مفردة "رجا" القرآنيَّة، لنبرز مدى اختلاف دلالة "رجا" في القرآن عن المعنى اللغوي لها، كتطبيق وتأكيد لطرحنا في تميز لسان القرآن واختلافه عن لغات العرب ولهجاتها، وضرورة صياغة معجم مفاهيمي للقرآن لا يقاس على لغات العرب ولهجاتها وإنَّما تكون معضدة في كشفه فحسب. انظر"لسان القرآن ومستقبل الأمَّة القطب"، طه العلواني، مكتبة الشروق الدوليَّة، ط١، ١٤٢٧هـ، سبتمبر ٢٠٠٦ م، من ص٦٨ إلى ص٧٥.

الصالحات إنَّما يجاهدون لأنفسهم، لأنَّهم بذلك يُكَفّرون عن سيئاتهم، ويُجزون أحسن الذي كانوا يعملون. **{ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون}**

ثانيا : القيام بأوامر الله عز وجل :

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت:٨).

بعض الكاتبين في أصول الفقه يُوحي بأنَّ كلمة «وصى» هي دون «أوجب وكتب وفرض»[٢٠]، لكن ملاحظة أن الموصي هو الله –جلّ شأنه– تزيل هذا اللبس، فإنَّ أي شيء صادر عن الله للعبد ينبغي أن يؤخذ في أعلى مراتبه ودرجاته، وخاصَّة إذا ما جاء بمثل هذه الصيغ: **﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ﴾**، فكأنَّ الله –تبارك وتعالى– يتلطَّف بالعبد بمستويات عديدة، فيأمره بالشئ على مستوى وصيَّة منه –جلّ شأنه– لعبده؛ لئلا يضيق صدره بإحساسه بوطأة التكليف، ويأمره أحيانًا بلفظ الفرض «فرضناها»، وكأنَّه يريد أن ينبه إلى أنَّ هذا الأمر مقطوع به، لا بد له من فعله، ويجعل الإنسان يلاحظ أهميَّته من حيث كونه مقطوعًا بفرضيَّته عليه، ووجوب أدائه له، ومرة يأتيّه بصيغة «كتب» وكأنَّه يقول له: إنَّ هذا أمر مكتوب ومقدر ودقيق، فلا ينبغي أن يتردد العبد في أدائه، وبالتالي فإنَّ سائر هذه الصيغ «وصى وفرض وأوجب وكتب» لا ينبغي أن يُنظر إليها – وقد صدرت من الله لعبده – على أنَّ فيها ما يمكن التساهل فيه، وإعطاؤه درجة أقل من درجة الحتميَّة والإيجاب، بل إنَّ تنوع هذه الألفاظ تلطف من الله بعباده، وتنبيه منه –جلّ شأنه– لهم لينشطوا للقيام بهذه

[٢٠] "فرض: وهو الواجب في اصطلاح أهل الأصول، ويعني ما يذم شرعًا تاركه قصدًا مطلقًا، ويثاب فاعله، وواقعه هو ما طلبه الشارع طلبًا جازمًا بدليل قطعي أو ظني، غير أنَّ بعض الأصوليين يرى أنَّه إذا ثبت التكليف بدليل قطعي كالكتاب والسنَّة المتواترة فهو الفرض، وإن ثبت بدليل ظني كخبر الواحد والقياس فهو الواجب، وهذا التفريق ليس اصطلاحًا على الحقيقة، بل تعريف لمسمى معين، فيجب أن يكون مطابقًا للواقع، والشرع طلب طلبًا جازمًا بقطع النظر عن ثبوت الدليل قطعًا أو ظنًا. فلا عبرة بهذا التفريق بين اللفظين، ومعنى الوجوب. لغة الثبوت والاستقرار، واللزوم، والسقوط" (معجم مصطلح الأصول، هيثم هلال، تحقيق محمد التونجي، دار الجيل، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣ م، ص٢٣٣) وأما كتب فهي : بمعنى حكم وقضى وأوجب، مثل قوله –تعالى: "كتب عليكم الصيام" سورة (البقرة/١٨٣)، نفسه، ص٢٦٠.

التكاليف، وأداء هذه الواجبات، وملاحظة جوانب التكامل فيها، وموقع كل منها من الآخر، فالتكاليف –كُلُّها – بناء متكامل، وقد جاءت كثير من الآيات التي اشتملت على بيان فرضيَّة ووجوب أو تحريم إلهيّ مقترنة بالتوصيَّة؛ لتستثير في الإنسان كل مشاعر الخير وتستفزها إذا ما لاحظ أنَّها وصيَّة مباشرة من الله إليه بأن يفعل أو يترك، فهناك قدر مشترك بين هذه المفردات يجعل منها مفهومًا متكاملًا، وهناك قدر من الاختصاص الذي قد يوحي بمعانٍ إضافيَّة، على المعني بقضايا الأصول أن يلحظها، فلا ينزل بأي منها عن مرتبته، وقد صدرت –كُلُّها – عن الله –تبارك وتعالى–.

ومع ذلك فإنَّ ألفاظ القرآن الكريم بناءاً على أنَّها استعمال إلهيٌّ للغة؛ ينبغي أن تميَّز دائمًا عن الاستعمال البشريّ، ويلاحظ فيها نسبتها إلى الله –تبارك وتعالى.

ثالثا : لا طاعة لمخلوق في معصية الله:

ومن الفتنة أن يتصدى للمؤمن –الذي يريد أن يُخْرِج الناس من الظلمات إلى النور بكتاب الله– أقرب الناس إليه، وأحبهم إلى قلبه، بل أحيانا من هم سبب وجوده كالوالدين، فهي فتنة كبيرة أن يكون الداعية مؤمنًا ويكون والداه مشركين أو يكون أبناؤه أو أحباؤه ممن ينتمون إلى معسكر الكفر. وفي هذه الفتنة يفصل القرآن المجيد فينهى المؤمن أن يشرك به إذا ما واجه حالة كهذه وجاهده أبواه على أن يشرك بالله ، لأنَّ الشرك ظلم عظيم، ولأنَّ الشرك نقيض الإيمان الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويؤدي إلى البوار في الدنيا والآخرة، وفي الوقت الذي يوجب الله –سبحانه وتعالى– على المؤمن أن لا يضعف أمام مجاهدة والديّه له ليكفر بالله ويشرك به، يأمره أن يصاحبهما في الدنيا معروفًا، فلا يتنكر لهما ولا يؤذيهما، ويجد المؤمن –والحالة هذه– نفسه في معادلة شديدة الصعوبة، فمن ناحيَة يجد والديه يجاهدانه ويبذلان قصارى جهودهما لإلقائه في براثن الشرك، وهو مطالَب برفض الاستجابة من ناحية مع المحافظة على حسن الصحبة من ناحية أخرى، وذلك أدب من آداب الفتنة

شديد الصعوبة، لكنَّه واجب لا بد من القيام به والمحافظة عليه، والمرجع آنذاك إلى الله – تعالى– الذي ينبيء الجميع بما كانوا يعملون من خير أو شر أو صلاح أو فساد ويجازي كلًّا بعمله.

رابعا : الدخول في زمرة الصالحين لا يتأتى بدون الاقتداء بهداهم :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ (العنكبوت:٩).

هنا يقرر الله –جلّ شأنه– أنَّ الذين آمنوا وعملو الصالحات في هذه الحياة الدنيا، ولم يخضعوا إلى أي ضغوط، بما في ذلك ضغوط أقرب الناس إليهم؛ سيدخلهم في الصالحين، ويعوضهم عن تلك القرابات – التي كانت تحاول أن تجتالهم عن سبيل الحق والهدى والنور– عبادًا لله صالحين، يكونون فيهم وينتمون إليهم.

وعبارة (**في الصالحين**) أي في زمرة الكاملين في صلاحهم، وهي دعوة سيدنا يوسف: **﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأرض أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف:١٠١)**، أي أدخلني في زمرة أولئك الصالحين ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ذالِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً** ﴾ **النساء (٦٩ – ٧٠)** فهم الذين أنعم الله عليهم والذين ندعو الله عند قراءتنا للفاتحة في كل مرة أن يهدينا صراطهم ويضعنا على سبيلهم لندخل في زمرتهم يوم القيامة. وفوائد ذكر هذا واستمرار المؤمن في ترديده وتذكره لا تخفى؛ فإنَّها تخرجه دائمًا من دائرة الإحساس بالغربة والتفرد لتجعله يشعر — باستمرار – أنَّه ينتمي لفريق وقبيل لهم كل ذلك الامتداد في البشريَّة، ويشعر بالقرابة الحقيقية التي تنأى به عن

الإحساس بالروابط الهابطة التي قد تتنافى ورسالته في هذه الحياة الدنيا مثل الروابط الجاهليَّة القبائليَّة حين تتجاوز حدودها والعرقيَّة والإقليميّة وما إليها. فهي انتماء حقيقي إلى فسطاط الصالحين، له عائده النفسيّ على الإنسان حين يضعه نصب عينيه.

رابعا : الصمود أمام الفتن :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ (العنكبوت: ١٠-١١).

هذه الآية امتداد لقضيَّة الفتنة، وبيان لموقف بعض من يُبْتَلون بها، فهناك أناس ضعفاء لا يصمدون أمامها، وحبهم للعاجلّة وتعلقهم بها قد يجعلهم يستهينون بعذاب الله، ولا يشعرون بخطورة تعرضهم له في الدار الآخرة، فيجعلون من فتنة الناس سببًا يدفعهم إلى قبول الشرك والكفر والنفاق ؛ مما يؤدي بهم إلى العاقبة الوخيمة في الدار الآخرة، نسأل الله العفو والعافية.

ويخبر الله -تبارك وتعالى- بأنه عليم بالصادقين في إيمانهم، الذين لا يمكن - إذا فتنوا- أن يعتريهم ضعف يؤدي بهم إلى التنازل عن الإيمان كما يفعل المنافقون.

والله -سبحانه وتعالى- يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، فيعلم الصادقين في إيمانهم، ويعلم الكاذبين من المنافقين.

وهذه الآية وهي في سورة مكية كأنَّها تمهّد لفصائل من الناس سوف يواجههم المسلمون في المدينة المنورة بعد هجرتهم؛ وهم المنافقون، وفي ذلك إعداد نفسي للمؤمنين؛ ليعرفوا كيف يواجهون هؤلاء الذين يعبدون الله على حرف، فإن أصابهم خير اطمأنوا به، وإن

أصابهم شيء غير ذلك انقلبوا على أعقابهم، واستهانوا بفتنة الله وعذابه، ولم يحتملوا فتنة الناس التي هي قصيرة المدى وزائلة؛ ليكسبوا رضا الله –جلّ شأنه– فكأنَّ رضا الله أهون عندهم من أن يحتملوا من أجلّه فتنة الناس الزائلة.

وهذة الآية تعيد إلى الذاكرة ذلك الصنف الضعيف الهابط من البشر الذين ذُكروا في سورة الحج: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ**﴾[٢١] (**الحج:١١–١٢**) فهم صنف هابط وضائع تغلبت عليه خواص الطين المتعفن والحمأ المسنون فأخلد إلى الأرض واتبع هواه، فلم يفهم حقيقة الدين ولا التدين، وأوهمته نفسه وشياطينه بأنَّ الدين نوع من الهوى لا بد أن يخضعه لمصالحه، فإن حقق له مصلحة فهو دين يستحق أن يتدين به وإن فَوَّت عليه أية مصلحة دنيويَّة أو حرمه من أية شهوة من شهواته انقلب على عقبيه يلهث وراء أي شيء قد يلبي له رغباته ويحقق له ما يعده مكاسب، إنَّه يربط بين شهواته ورفاهيَّته، فدينه دیناره وإلهه هواه لكنَّه في هذه السورة يبدو جبانًا رعديدًا يخشى الناس أكثر من خشيته لله ويجعل فتنة الناس كعذاب الله، بل إنَّه لشدة تعلقه بالعاجلّة يخشى فتنة الناس ويتنازل عن الإيمان خوفًا منها ويتغافل عن أنَّ الله –تعالى– يعلم ما في قلبه من نفاق وأمراض وفساد. وتنبه الآية الكريمة إلى ضعف تفكير هؤلاء المنافقين وفساد تدبيرهم، أمَّا في آية سورة الحج (١١) فتتضح

[٢١] يقول سيد قطب في الظلال في تفسيره لهذه الآية "وإلى أين يتّجه هذا الذي يعبد الله على حرف؟! إلى أين يتجه بعيدًا عن الله تعالى؟! إنّه: ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ﴾، يدعو صنمًا أو وثنًا على طريقة الجاهليَّة الأولى، ويدعو شخصًا أو جهة أو مصلحة على طريقة الجاهليَّات المتناثرة في كل زمان ومكان كلّما انحرف الناس عن الاتجاه إلى الله وحده، والسير على صراطه ونهجه، فما هذا كله؟ إنَّه الضلال عن المتَّجه الوحيد الذي يُجدي فيه الدعاء: ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾، المغرق في البُعد عن الهدى والاهتداء: ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ من وثن أو شيطان، أو سند من بني الإنسان، وهذا كله لا يملك ضُرًّا ولا نفعًا، وهو أقرب لأن ينشأ عنه الضرّ، وضرّه أقرب من نفعه، ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى﴾ ذلك الضعيف لا سلطان له في ضرّ أو نفع، ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ ذلك الذي ينشأ عنه الخسران، يستوي في ذلك المولى والعشير من الأصنام والأوثان، والمولى والعشير من بني الإنسان، ممن يتّخذهم بعض الناس آلهة أو أشباه آلهة في كل زمان ومكان! " سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد الرابع، طبعة الشروق، ١٣٩٨ هـ، ١٩٧٨ م، ص٢٤١٣.

غلبة السفه عليهم حين يضعون لصلاح الدين من عدم صلاحه مقياسًا مفتعلًا وهو ما يتوهمونه مصلحة لهم وما هو بمصلحة، وكيف يكون ما يجلّب الخسران المبين –خسران الدنيا والأخرة– مصلحة؟!

إنَّ سفههم وخسرانهم مُحتَّم، كيف لا وهم يدعون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم بل إن ضره أكبر من نفعه، إنَّه لبئس المولى ولبئس العشير .

فهذا الصنف غير مستقرّ في إيمانه، بل هو على حرف في إيمانه، وانحراف في عقيدته، مثله كمثل الذي على طرف من جرفٍ هار، مقاييس صحّة الدين أو عدم صحّته عنده هي النفع الدنيويّ الذي يُقدّمه الدِّين له، فإن تتابعت عليه المنافع الدنيويَّة قال: "هذا دين جيّد، وعليّ الاستمرار عليه"!! وإنْ أصابه شيء غير ذلك سارع للارتداد والتحوّل والانقلاب على وجهه، وبذلك يخسر الدّنيا والآخرة، فالدين والعبادة لابد أن تكون خالصة لله تعالى، لا تشوبها شوائب المنافع الدنيويَّة.

خامسا : استبيان سبيل المجرمين :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (العنكبوت:١٢).

تنبهنا الآية إلى نوع من الإغراءات، قدمها دعاة الشرك للضعفاء الذين يحاولون ضمهم إلى قوافل أولئك الذين أضلوهم بغير علم، ألا وهي؛ أن يقولوا لهم: إنَّ الأصل أن لا تكون هناك آخرة ولا حساب ولا جزاء، لكن لو حدث وصادف وجود شيئ من ذلك فسوف نحمل عنكم تلك الخطايا، إمعانًا منهم في السخرية والاستهزاء، ونفي البعث والحساب وإضلال المستضعفين، فيبين الله –جلّ شأنه– مدى جناية هؤلاء على من

يتبعونهم، وينبه إلى أنَّ هذا النوع من المستكبرين لديهم من الخطايا ما يكفي لإلقائهم في النار مرات عديدة، وهم كذبة مفترون حين يزعمون أنَّهم سوف يحملون خطايا أولئك الذين يستجيبون لوساوسهم وإيحاءاتهم، فيتبعونهم في كفرهم وشركهم،[٢٢] ويخرجون من دائرة الإيمان واتباع النبي —ﷺ— إلى دائرة الكفر والنفاق واتباع المنافقين والضالين.

فأولئك السادة والمستكبرين يحملون أوزارهم وأوزارًا مع أوزارهم، وهي أوزار الذين يضلونهم بغير علم، فما أجرأهم على الله حين تبلغ بهم رغبات الضلال والإضلال هذا المدى، فيحاولون أن يخدعوا المستضعفين ويقودوهم إلى النار بمثل ذلك الوعد الكاذب: ﴿..**اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ**..﴾ ﴿**وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾ (**العنكبوت:١٣**).

وتكمل الآية الكريمة أنَّهم سيحملون كفرهم وشركهم ونفاقهم ورياءهم وأثقالهم من الذنوب والمعاصي والانحرافات كلها وهي كافية لإلقائهم في النار دون أن يعفى أولئك الذين انخدعوا بهم واتبعوا سبيلهم من خطاياهم؛ فخطايا المستكبرين هي خطايا الدعوة إلى الضلال والعمل على إضلال الآخرين، أمَّا خطايا أولئك المستضعفين فهي الخطايا العمليَّة والسلوكيَّة التي وقعت منهم بناءً على انخداعهم بدعوى أولئك الضالين المنحرفين أو خضوعهم لها.

إنَّ هذه الآية الكريمة تنبِّه إلى ظاهرة أخرى تتلخص في أنَّ هؤلاء الذين جندتهم الشياطين للصد عن سبيل الله لا يتركون وسيلة تساعد الشيطان وتحقق أهدافه وأهدافهم المشتركة في الصد عن سبيل الله إلا توسلوا بها، فهم لا يكتفون بالضغوط المختلفة التي يوجهونها إلى أولئك المستضعفين ليصدوهم عن سبيل الله وعن اتباع سبل رسل الله بل يعدونهم الوعود الكاذبة ليزيلوا مخاوفهم من تنكب سبيل الهدى فيقولون لهم: ﴿**اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ** ﴾ إن كنتم تظنون أنَّ مخالفتكم لسبل الرسل وعدم اتباعكم إياهم قد

[٢٢] قال النسفي في شرح قوله تعالى {وَمَا هُمْ بحاملين مِنْ خطاياهم مّن شَىْء إِنَّهُمْ لكاذبون}: لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه، كالكاذبين الذين يعدون الشيء وفي قلوبهم نية الخلف. تفسير النسفي ج٣:ص٢٥٢

يسلككم في عداد الخاطئين. وهم يعلمون علم اليقين أنَّ الجزاء في الدار الآخرة فردي فلا أحد سيحمل خطايا أحد: ﴿**أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى * وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى**﴾ (**النجم: ٣٦– ٤٢**).

إنَّ طبيعة الاستعباد والاستبداد هي الاستخفاف بالمستضعفين واستحمارهم وتدمير إرادتهم ومصادرة حريَّة الاختيار لديهم واتخاذهم خولًا وعبيدًا يوجهونهم إلى حيث يريدون[٢٣].

ولقد تسللت إلى ثقافتنا الشعبيَّة هذه النزعة الطغيانيَّة المنحرفة فصرنا إذا ما حاك في نفس أحد شيء يتطوع أحد أصحابه أو أهله ويقول: "افعل ولا عليك، الذنب أو الخطأ برقبتي" وقد يضرب على رقبته توكيدًا لذلك، وقد انتشر قول العامَّة– المنحرف– تعزيزًا للتقليد: "حطها برقبة عالم واطلع منها سالم"، بينما سيدنا رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– علمنا أنَّ حكمه –نفسه– لا يجعل ما ليس بحق لأحد في الواقع ونفس الأمر حقًا له، ولا يجعل ما ليس بحلال حلالًا [٢٤]. فأحكام الله والجزاء في الدار الآخرة يجريان على ما هو حاصل في الواقع ونفس الأمر لا على مستوى فتوى المفتي وقضاء القاضي واجتهاد

---

[٢٣] إنَّ تجاوز الاستبداد يحتاج لتجديد حقيقي وليس يتم بمجرد الاشتغال بأساليب المقارنة والمقاربة والتأويلات الجزئيَّة التي لن تحقق نفعًا، وكما أشرنا هناك فإنَّ وضع الأمَّة نفسه هو ما يدل على فشل هذه المقاربات التي لا تقوم بتجديد حقيقي صحيح لمنظومة الأفكار الموروثة التي أدَّت إلى تفشي ظاهرة الفرديَّة والطغيان والاستبداد في أمتنا لا في الحاضر فقط؛ بل في الماضي كذلك. فقد صدر للصديق الأستاذ الأديب الشاعر زيد بن علي الوزير كتاب «قيم في الفرديّة» بحث في أزمة الفقه الفرديّ السياسيّ عند المسلمين، صنعاء: مركز التراث والبحوث اليمنيّ (٢٠٠٠).

وأعتبر هذا الكتاب امتدادًا طبيعيًّا لكتاب «طبائع الاستبداد» للكواكبي، يأتي بعد ما يزيد عن مائة عام على صدور كتاب الكواكبي (ضمن الأعمال الكاملة بتحقيق محمَّد عمار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٥ م) (دار النفائس، ط٣، ١٤٢٧ هـ، ٢٠٠٦ م) والكتاب صدر للمرة الأولى عام ١٩٠٢، ،وكتاب النائيني «تنبيه الأمَّة»، ترجمة وتحقيق د. مشتاق الحلو، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، ودار التنوير، بيروت، ط١، ٢٠١٤، والكتاب صدر أول مرة باللغة الفارسيَّة عام ١٩٠٩، ليجد طبائع الاستبداد لا تزال كما هي والفرديّة أكثر تغشيًا وانتشارًا، والأمَّة في نوم أعمق وإنا لله وإنا إليه راجعون. انظر مقال عن التجديد نشر لنا على موقعنا على النت في نوفمبر ٢٠١١.

[٢٤] المقصود هنا هو حديث "إنَّما أنا بشر وإنَّه يأتيني الخصم ولعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنَّه صادق فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنَّما هو قطعة من النار فليأخذها، أو ليدعها" رواه البخاري في كتاب الأحكام، باب من قضي له بحق أخيه فلا يأخذه فإنَّ قضاء الحاكم لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالًا، (٦٦٧٢)، (٥٦٢٧).

المجتهد. لقد استدركت أمُّنا عائشة على أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– والقراء العظام منهم أحاديث كثيرة جمعها الزركشي في كتاب "الإجابة فيما استدركته عائشة على الصحابة" [٢٥]. وما أروع مشاهد القيامة في القرآن وهي تصور الحوارات المليئة بالدروس والعبر بين الذين استكبروا والمستضعفين وبينهم وبين الشيطان.

النجم الثاني: ابتلاء المرسلين: من الآية ١٤ إلى الآية ٥٥.

إرسال نوح وعاقبة قومه:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ١٤).

هنا تبدأ قصص الأنبياء التي تقدم كثيرًا من الفوائد لرسول الله —صلى الله عليه وآله وسلم– والمؤمنين، أمَّا رسول الله —ﷺ– ففيها التسرية عنه، وبيان أنَّه –عليه الصلاة والسلام– سائر على ذات الطريق الذي سلكه وسار عليه سائر الأنبياء والمرسلين من قبل، وهو طريق محفوف بالمخاطر، ملئ بالأشواك، جعل منه الشيطان وأتباعه طريقًا صعبًا بمن اجتالوهم وأفسدوا فطرتهم من البشر، وجعلوا منهم أعداءً لله ولأنفسهم، فيبدأ بسيدنا نوح –عليه السلام– ويبين لرسول الله —ﷺ– صبر سيدنا نوح الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وهي فترة تمثل أضعافًا مضاعفة لما لبثه رسول الله —ﷺ– بين قومه، وتبين أنَّ

[٢٥] كتاب الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، الإمام بدر الدين الزركشي، حققه: الدكتور مُحَمَّد "بنيامين أرول"، راجعه وقدم له المحدث شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤ م.

معاناته –ﷺ– أقل بكثير من معاناة سيدنا نوح –عليه السلام– مع تلك الفترة الطويلة، ومع ذلك فقد كانت نهايتها أشد وأشق على النفس من النهايات المبشرة التي ستنتهي بها جهود رسول الله –ﷺ– فنوح قال له الله –جلّ شأنه– بعد كل تلك الفترة الطويلة: ﴿..لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ (هود:٣٦) ونوح نموذج للصبر من أقوى النماذج، فلم يقل «يارب ما دمت تعلم أنَّه لن يؤمن منهم إلا ذلك العدد اليسير فلم تركتني أعاني هذه المعاناة معهم؟ وأطمع بهدايتهم وأنت تعلم أنَّهم لن يهتدوا» بل كان مثالًا للتسليم والاستسلام لله –سبحانه وتعالى– وأمره الله –تعالى– بصناعة الفلك ليحمل فيه من آمن من أهله وقومه وما أمره الله –سبحانه– بحمله، ففعل عليه السلام.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت:١٥).

فأنجاه الله ومن حمل في سفينته، وجعل ذلك آية للعالمين؛ يأخذون منها العبر والدروس ما دامت السموات والأرض. لقد كان مَنْ أنجاه الله مع نوح وذرية من حمل الله معه كأنَّه استئناف لعمليَّة الخلق والاستخلاف. فكأنَّ الله –جلّ شأنه – قد غسل بالطوفان الأرض من أولئك المفسدين وطهرها منهم ومن أرجاسهم لإعداد من نجا منهم لحالة استخلاف مستأنسة تكون أفضل مما سبقها في ألفيَّة نوح وما جاء قبلها ولتبدأ مرحلة اصطفاء من نوع جديد غير اصطفاء آدم ونوح، يقول الله –جلّ شأنه: **﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:٣٣)**. وفي حالات الاصطفاء التي تلت الطوفان اصطفى الله أسرًا وعوائل، فاصطفى إبراهيم وآله وآل عمران واصطفى بني إسرائيل واصطفى كثيرًا من الأنبياء والرسل لما اقتضت حكمته أن لا يعذب أحدًا حتى يبعث إليه رسولًا؛ ولذلك فإنَّه ما من قرية ولا أمَّة إلا خلا فيها نذير. وحين اصطفى إبراهيم وآله قال:{إِنِّي جاعلك للناس إمامًا، قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين} البقرة: ١٢٤ ولذلك فإنَّ حالات الاصطفاء استهدفت أن تجعل من أولئك

الذين اصطفاهم الله نماذج من المهتدين الذين يكونون قدوة وأسوة لغيرهم من البشر، فَوَالى إنزال الكتب والصحف عليهم لتوفير سبل الهداية والاستقامة وليقال للناس ﴿**قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ (**البقرة:١٣٦**) .وهذه الفترة فترة الاصطفاء الأسري والقومي -إن صح التعبير-كانت مؤقتة بأجلّ مسمى هو بعثة رسول الله -ﷺ- برسالته العالميَّة الخاتمة التي تقوم على دعائم ختم النبوَّة وحاكميَّة الكتاب وشريعة التخفيف والرحمة ووضع الإصر والأغلال التي كانت عليهم.

سيدنا إبراهيم ودعوته قومه:

﴿**وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ (**العنكبوت:١٦**).

ثم تعرج السورة على أبي الأنبياء إبراهيم الذي كان رسول الله -ﷺ- والعرب من حوله يعرفونه ويعرفون شيئًا من تاريخه، وعلاقته بالبيت الحرام، فَذَكره الله -جلّ شأنه- لرسوله مُحَمَّد -ﷺ- وبين له ما قاله لقومه وأركان دعوته، وهي بيان ضلالهم في اتخاذ الأوثان وبيان أنَّهم لن يضروا أحدًا بتكذيبهم إلا أنفسهم وبيان ضرورة الإيمان بعقيدة البعث والنشور، وأنَّ من يرفض ذلك ويكذب الرسول فلن يضر إلا نفسه، أمَّا الرسل فما عليهم إلا البلاغ المبين، وخلال ذلك يدعوهم إلى التفكر في خلق الله، ويبيّن لهم أنَّهم لا يُعْجزون الله في أرضه ولا في السماء، وأنَّه ما لهم من دون الله من ولي ولا نصير ويحذرهم من عاقبة الكافرين وهذه الأركان المشتركة في دعوات الأنبياء والرسل كافَّة.

﴿**إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ (**العنكبوت:١٧**).

فإبراهيم عليه السلام دعا قومه بمثل ما دعوت قومك يا مُحَمَّد إلى نبذ الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن عابديها ومعظِّميها من الله شيئًا، فبيَّن لهم ها هنا أنَّ هذه الأصنام لا تملك رزقًا ولا عطاءً، فمن يبتغِ منكم الرزق والعطاء فليطلبه من الله –جلّ شأنه– رب العالمين، الذي ما من دابة إلا عليه –سبحانه– رزقها، والذي قدر في الأرض أقواتها.

﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (العنكبوت:١٨).

وأنتم يا قوم مُحَمَّد، ويا مشركي قريش إن كذبتم؛ فلستم أول من كذب الرسل، فهناك خلق كثير سبقوكم في ذلك التكذيب والكفر، وما ضروا الله شيئًا، ولا ضروا رسوله بشيء، فالله غني عن العالمين، ورسوله –ﷺ– لم يكلف بغير البلاغ، وقد بلَّغ وأنذر وأدى ما عليه، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

البعث والنشور:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (العنكبوت:١٩).

ثم ينتقل السياق للفت أنظار هؤلاء المنكرين للبعث والنشور والحياة بعد الموت؛ ليؤكد لهم أنَّ من بدأ الخلق قادر على إعادته بعد إماتته، وأنَّ ملاحظة ذلك كافية لإقناعهم بتلك القدرة المطلقة لله –سبحانه– فهو الذي بدأ الخلق، وهو من سيعيده، فأنَّى يؤفكون، : كيف يُصرفون عن الحق ، وكيف تسمح لهم أفهامهم بإنكار الخلق من القادر عليه، والذي برهن لهم على تلك القدرة المطلقة، ويفترض أن يدرك هؤلاء – لو أنَّ لهم عقولًا يفقهون بها – أنَّ إعادة الخلق أهون من إبداعه وإنشائه لا على مثال سابق، لكنَّهم لم يدركوا ذلك.

التفكر في خلق الله:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأرض فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ (العنكبوت: ٢٠-٢١).

فإذا لم تستطيعوا أن تدركوا قدرة الله على بعث الخلائق فأنتم أهل رحلات وضرب في الأرض؛ فسيروا في الأرض وتفكروا مَنْ خَلقها ومن أوجدها، ومن أوجد من يعيشون عليها، لتدركوا أنَّ ذلك أمر على الله يسير، وأنَّه قادر عليه، بل هو أهون عليه -جلّ شأنه- وله المثل الأعلى ، وأنَّه في يوم القيامة قادر على أن يعذب المشركين والمجرمين، ويجازيهم بما ارتكبوه في هذه الحياة الدنيا، ويعذبهم على ما اقترفوه، وأنَّه قادر على المغفرة لأولئك الذين يؤمنون به وعلى ربهم يتوكلون، لا يشركون بالله شيئًا، بل يوحدونه التوحيد الخالص.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ (العنكبوت: ٢٢).

وأنتم أيُّها المشركون لن تعجزوا الله -جلّ شأنه- لا في الأرض التي تحيون عليها ولا في السماء لو كان لكم سبيل للوصول إليها، وما أنتم بمعجزين، وليس لكم من دون الله ولي ولا نصير ينصركم منه، والله -تبارك وتعالى- حصر ولايته في أولئك الطائعين الذين يتولونه ويحبونه ويهتدون بهداه ويستجيبون لرسله.

عاقبة الكافرين:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (العنكبوت: ٢٣).

ومع كل رحمته وسَعَتِها –وقد وسعت كل شيء وسبقت غضبه– إلا أنَّ من أشركوا به ولم يستجيبوا له إذ دعاهم، ولم يؤمنوا به إذ ناداهم، فهؤلاء يئسوا من رحمة الله فلم يطلبوها، ولن يكون لهم جزاء إلا العذاب الأليم في الدار الآخرة.

موقف قوم إبراهيم من دعوته:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت: ٢٤).

إنَّ حوار إبراهيم مع قومه تظهر فيه شخصيَّة إبراهيم الباحثة في الخلق، المتتبعة للكون، والتي يُفترض أن تقود قومه إلى النظر في الخلق؛ لينظروا كيف بدأ الله الخلق، فيدركوا قدرته –جلّ شأنه– على أن يُنشأ النشأة الآخرة، وقدرته على إلقاء من يشركون به في النار، وتعريضهم إلى العذاب الأليم، ورحمة من يشاء الله لهم الرحمة ويجعلها نصيبهم؛ لإيمانهم به، وطاعتهم له، وإيمانهم بأنَّهم سوف ينقلبون إليه –جلّ شأنه– فهم إليه يُقلبون وإليه يرجعون، لا إلى طواغيتهم، ولا إلى المستكبرين الذين قادوهم إلى عبادة الأصنام، وأنَّهم لن يعجزوا الله –جلّ شأنه– أن يفعل ذلك فيهم، ويميز الكافرين عن غيرهم.

وبالرغم من كل ما حملته دعوة سيدنا إبراهيم– عليه السلام — من أسس عقدية وتفنيد لأحاجي قد يطرحونها ، بالإضافة إلى طريقته الحكيمة في مخاطبتهم؛ إلا أن رد أولئك المكذبين جاء على غير ما توقعه إبراهيم عليه السلام إنهم بدلا من أن يواجهوا المنطق بالمنطق والفكر بمثله كان جوابهم اقتلوه أو حرقوه، فكأنَّهم يريدون بتحريقه أو قتله حرقًا أن يبينوا له قدرتهم على إدخاله النار، نار الدنيا قبل أن يصلوا إلى نار الآخر التي تَوَعَّدهم بها، فأنجاه الله منها، وكان ذلك كافيًا لأن يدركوا أنَّ لإبراهيم ربًا وإلهًا قادرًا، له قدرة مطلقة، وهو الذي نجاه من النار، أمَّا هم فلا ولي لهم ولا ناصر ينصرهم من الله، وتكون سلامة سيدنا إبراهيم– عليه

السلام – من النار آية ودليلا على صدقه ، لكن هذ النوع من الآيات والدلائل لا يستطيع أن يستفيد به إلا المؤمنون، أمَّا هم فهم أعجز من أن يستفيدوا بذلك.

رد إبراهيم – عليه السلام – على قومه:

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (العنكبوت:٢٥).

فعلى الرغم من أنهم تركوا الحوار ولجأوا إلى التهديد بالقتل أو الحرق إلا أن سيدنا إبراهيم– عليه السلام – يحاول أن يستدرجهم للرجوع إلى منطقه في الحوار فيحقر آلهتهم أولا قائلا لهم ما الذي اتخذتموه من دون الله؟! إنَّكم ما اتخذتم من دون الله إلا أوثانًا –جمع وثن– وهو ما يعبده المشركون مما يُنحت من الحجر. والفرق بينه وبين الصنم؛ أنَّ الصنم ما يتخذ من حجر وغيره، فقد يكون من نحاس أو أى معدن آخر، وقد يكون من حجارة، فالأصنام أعم من الأوثان، والأوثان أخص منها، ثم يكشف سيدنا إبراهيم – عليه السلام – عن الحالة النفسيَّة لأولئك المشركين من قومه، ويبيّن لهم أهم الأسباب التي جعلتهم يتشبثون بالشرك، وهي رغبة كل منهم بعدم مخالفة عادات قومه وتقاليدهم، أو الخروج عليها، وأنَّ من أهم دوافع شرك كلٍّ منهم: أنَّه يريد أن يظهر المودة لقومه، ويتقرب إليهم، ولكن هذه المودة سوف تنقلب إلى نقمة وعذاب يوم القيامة، ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض، ويلعن بعضكم بعضًا، ولن ينفعكم آنذاك الاعتذار بأنَّكم إنَّما أشركتم للمحافظة على تلك المودة بينكم، لأنَّ يوم القيامة سيكون مصيركم إلى النار، ولن تجدوا من ينصركم من الله –سبحانه وتعالى–، فهي مثل قوله تعالى: **﴿الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٦٧).**

فما هي حصيلة دعوة إبراهيم – عليه السلام – لهؤلاء القوم ؟

يجيب القرآن الكريم ﴿**فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ** ﴾ ومع ذلك لم يتسلل الإحباط واليأس إلى قلب سيدنا إبراهيم- عليه السلام – وإنما قرر أن يسيح في الكون باحثا عن أرض خصبة لدعوته يسجل القرآن هذه المحصلة وهذا القرار فيقول تعالى : ﴿**فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ **(العنكبوت:٢٦)**.

صَدَّقه لوط وقال: «إِنِّي مهاجر إلى ربي» حيث لم يتحول قومه إلى الإيمان، ولم يؤمن به عدد يُطمعه في هداية الآخرين، ليواصل الحياة بينهم ودعوتهم، ﴿**وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ وفي ذلك تنبيه إلى حيرته الشديدة -عليه السلام- في قومه وهي مثل حيرته وهو ينظر في النجوم، كما في سورة الأنعام؛ حين رأى كوكبًا قال هذا ربي، ثم بعد جولته مع الكواكب والشمس والقمر وقناعته وإيمانه بأنَّه ليس شيء منها يصلح أن يُتخذ إلهًا، قال: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأرض حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ **(الأنعام:٧٩)**، وهنا أعلن لقومه أنَّه مهاجر إلى ربه، وكذلك المؤمن دائمًا؛ كلما ادلهمت الخطوب، وتراكمت الكروب، واشتدت عليه الأزمات؛ توجه مخلصًا إلى الله العزيز الحكيم.

خيرا الدنيا والآخرة:

﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ **(العنكبوت:٢٧)**.

ولذلك فإنَّ العزيز الحكيم الذي هاجر إليه إبراهيم – عليه السلام – قد أثابه في الدنيا، ﴿**وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا** ﴾ ، بأن وهب له إسحاق ويعقوب وجعل في ذريتهما النبوَّة والكتاب ، ليفتح له شعاعا من نور يتمثل في حمل هذه الذرية الممتدة لهذه الرسالة ،

ورفع مكانته، واتخذه خليلًا، وجعله في الآخرة من الصالحين، وبذلك فقد حاز سيدنا إبراهيم- عليه السلام – خيري الدنيا والآخرة.

لوط وقومه:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت:٢٨).

وردت كلمة الفحشاء في القرآن الكريم في آيات كثيرة منها: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:٩٠)، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور:٢١)، ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (الشورى:٣٧).**

والفحشاء والفاحشة هي ما عظم قبحه شرعًا وعقلًا وطبعًا من الأفعال والأقوال والتصرفات، وجمعه يدل على تعدد الأنواع التي أطلق عليها فواحش، وتنوعه إلى فواحش ظاهرة وفواحش باطنة؛ ولذلك فقد كان مستغربًا ذلك الفهم العجيب في قصر مفهوم الفاحشة على جريمة الزنى فهذا يجعل الناس يعتادون الفواحش الأخرى ولا ينكرونها والله يقول : **﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٣)** ولله في خلقه شؤون فأسلاف هؤلاء قد سووا بين البيع والربا وفرق الله بينهما حين قالوا: **﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ (البقرة:٢٧٥)** ورد -جلّ شأنه- عليهم بقوله: **﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾**

(**البقرة:٢٧٥**)، وعجيب أن يُسقط هؤلاء الفوارق بين ما يُنظر إليه من جانب الشرع وما ينظر إليه من جانب العرف أو العقل أو الطبع.

قوم لوط وإتيانهم الفواحش:

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (العنكبوت:٢٩).

وبسبب هذا المنطق في قصر مفهوم الفاحشة على جريمة الزنى اعتاد قوم لوط الفاحشة ولم يستحيوا من ارتكابها فكانوا يأتون الفواحش -كلها- ما ظهر منها وما بطن، وأبرزها الفاحشة التي رفضها الشرع ونفر منها العقل وحقرها الطبع، ألا وهى؛ إتيان الرجال شهوة من دون النساء، كما أنَّهم لم يكونوا يتعففون عن أي قول فاحش، أو تصرف فاضح، أو فعل مناف لكرامة الإنسان وحيائه، وما يقوم عليه المجتمع والأسرة، وكل تلك الأمور بالنسبة لهم بعيدة عن تفكيرهم، خارجة عن اهتماماتهم، كما كانوا يقطعون الطرق، ويأكلون أموال الناس بالباطل، ولا يتعففون عن منكر أبدًا، ولا يترددون في مقارفة أي منكر توحي شياطينهم إليهم به في منتدياتهم وأماكن اجتماعهم.

طلب النصرمن الله:

﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (العنكبوت:٣٠).

فكانوا قومًا من المفسدين، ما آمن منهم مع لوط أحد ولا استهجن فواحشهم أحد منهم، فهم قد أطبقوا على الفاحشة، وتوافقوا على أقبح المنكرات، ولم يجدِ معهم جهد لوط وطهره، ودعوته ونصحه، وقلَبوا سائر المقاييس والقيم، فلا غرابة أن يهلكهم الله -تبارك وتعالى- بشيء يرمز إلى ما كانوا يقارفونه ألا وهو تدمير قريتهم عليهم، وجعل عاليها سافلها،

وإمطارهم بحجارة من سجيل، فذلك الجزاء المناسب لهؤلاء القوم بما تمردوا عليه –سبحانه– وعصوا رسله، وتجرؤوا على سائر الحرمات والشرائع.

مجئ البشارة لسيدنا إبراهيم:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (العنكبوت:٣١).

«بشرى» إشارة إلى قوله –تعالى: **﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (هود:٧١).**

والبشرى هي الإخبار بما يسر ومن يخبر بها يسمى بشير، قال تعالى: **﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ (يوسف:٩٦)** أي؛ الذي يحمل البشارة والخبر السَّار إلى من كان يتمناه أو ينتظره، فحمل إليه الملائكة نبأين، أحدهما بشرى له ولزوجه، وهذه البشرى قد وردت في آيات أخرى كما سبق، والآخر فيه جانبان؛ جانب يخبره بأنَّ القول قد حق على قوم لوط، وأنَّ الله قد أرسل ملائكته لإهلاكهم ، والجانب الآخر يبشره بنجاة لوط وأهله مما سيحل بقومه .

طمأنة لوط:

﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (العنكبوت:٣٣)

لقد خاف من إساءة قومه إلى ضيوفه، وأحزنه أنَّه لا يملك من القوة ما يُمكنه من حمايتهم، والدفاع عنهم، فسارع ضيوفه من الملائكة إلى طمأنته بأنَّ قومه لن يصلوا إليه ولا إليهم، وأخبروه بأنَّهم قد حق القول على قومه، وأنَّ موعدهم الصبح ، وهو قريب.

عاقبة الظالمين:

﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ **(العنكبوت: ٣٤)**.

حينما يريد القرآن أن يُبيّن ما يترتب على الانغماس في الرذائل؛ من اضطراب في الحياة الدنيا، وسوء العاقبة فى الآخرة؛ يذكر الرجز، فكأنَّه يذكر عاقبة الفعل ليستدعي العقل المتدبر للفعل نفسه، المؤدي لتلك النتيجة التي سماها رجزًا[٢٦] ، فأنزل الله عليهم هذا الرِجْز من السماء بكل ما فيه، وما يسببه جزاءً وفاقًا لما كانوا يُقَارِفُونَه من جرائم إتيان الرجال شهوة من دون النساء، ومقارفة المنكر بأنواعه في نواديهم، وقطع الطرق، وإيذاء الناس، والاعتداء عليهم في أموالهم وأنفسهم، ورفضهم لرسالة لوط وما جاء به، واستكبارهم على الاستجابة له، فاستحقوا بذلك هذا العذاب الأليم.

تفكروا يا أولي الألباب:

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ **(العنكبوت: ٣٥)**.

ولقد بقيت تلك القرية التي أُمْطرت مطر السَّوء آيةً للناس لئلا يكرروا تلك الأفعال، ولئلا يسلكوا السبل نفسها، لكن لا يمكن للكافرين والمنافقين أن يأخذوا تلك الدروس ويستوعبوها وهم لا يؤمنون بالآخرة، ولا يؤمنون بوجود الله، ويتخذون الأصنام والأوثان آلهة،

---

[٢٦] جاءت كلمة الرُجْزَ بالضم في قوله -تعالى: ﴿**وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ**﴾ **(المدثر: ٥)**، وأمر الله -جلّ شأنه- رسوله -ﷺ- بأن يهجر الرُجْز، لينبه إلى أنَّه -عليه الصلاة والسلام- قد أُمر بهجر كل ما يمكن أن يؤدي إلى الرجز، وكأنَّ الأفعال المتنوعة، والأقوال التي تؤدي إلى ذلك الاضطراب الذي سمي رِجْزًا يمكن أن يقال عنها: رُجز، كما أنَّها رِجْس ورِجْز، فما ورد في رِجْس انصرف إلى القول أو الفعل الذي قد يقع من الإنسان، بل قد يتصف الإنسان به، فإذا ضم؛ أريد به الأشياء والأعيان التي يجب هجرها لئلا يقع الإنسان في رِجْسٍ يقوده إلى الرِجْز،

وتقول العرب للشِّعرِ الخفيف، الذي يستعمل لحداء الإبل، أو التسرية عن الأطفال: رَجَز، ويقال لواحده من القائد: «أُرْجُوزَة» لأنَّ فيه معنى التقلب والاضطراب، إذا لوحظت بحور الشعر الأخرى والله أعلم.

ولذلك فقد قال -جلّ شأنه: ﴿**وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا**﴾ (**الفرقان: ٤٠**).

إرسال شعيب – عليه السلام – :

﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأرض مُفْسِدِينَ**﴾ (**العنكبوت: ٣٦**).

أُطلقت مدين على اسم ولد من نسل إبراهيم -عليه السلام- وذلك ما ورد في التوارة، ثم أطلقت على القبيلة التي نُسبت إليه وانتشرت من ذريته، كما أُطلقت على مساكنهم التي امتدت ما بين طور سيناء إلى نهر الفرات، كما أنَّ قصة سيدنا موسى بعد فراره من مصر بعد حادثة قتل القبطي ارتبطت بوصوله إلى مدين، وعمله لدى الشيخ الكبير، وزواجه بابنته، هؤلاء هم الذين أُرسل إليهم شعيب، يدعوهم إلى عبادة الله —وحده- وعدم إشراك غيره معه في العبادة، لأنَّه المتفرّد بالألوهيَّة والربوبيَّة والصفات، ونلحظ أنَّه قد جعل العبادة فرعًا عن التوحيد، ليس ذلك فحسب، ولكنَّه دعى قومه إلى خصال كثيرة استند فيها إلى التوحيد، منها نهيه لقومه أن يعثوا في الأرض مفسدين، وهو نهي عام شامل يتناول كل ما يمكن وصفه بالفساد والإفساد بجميع مستوياته، وفي بعض الأحيان يدخل شعيب ببعض التفاصيل فينهاهم عن أن يبتغوا اعوجاجًا، أي؛ انحرافًا وميلًا عن الحق والصواب في تلاوتهم لآيات الله، أو استقبالهم لها، وهذا أمر يغاير ما نُسب لأهل الكتاب من تحريف الكلم عن مواضعه، وقد يتفق مع قوله -تعالى: ﴿**لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ**﴾ (**النساء: ٤٦**)، فهل كان قوم شعيب يبغون العوج فى الكتاب بطريق اللَّي بألسنتهم والطعن في الدين؟!

وفي سورة الأعراف ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ**

وَلا تُفْسِدُوا فِي الأرض بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:٨٥)، نجده يتعرض إلى فريضة الإيفاء بالكيل والميزان، وينهى قومه عن أن يبخسوا الناس أشياءهم، وعن أن يفسدوا في الأرض بعد إصلاحها من الله –تبارك وتعالى– وينهاهم عن أن يقعدوا بكل صراط يقطعون الطريق، ويخيفون الناس، ويهددونهم ويصدونهم عن سبيل الله حين يعلمون منهم الإقبال على الإيمان به، ويبغونها عوجًا، أي يريدون بها الاعوجاج سواء بطريق التحريف أو اللَّي بألسنتهم والطعن في الدين، أو أيَّة وسيلة أخرى تجعل آيات الله المنزلة معوجة في نظر الناس، لينفروهم منها، وليباعدوا بينهم وبينها وهم شهداء على أنَّها لا عوج فيها ولا أمتا.

فالله –تبارك وتعالى– لم يجعل في آياته عوجًا –كما ذكر في سورة الكهف – ، لأنَّ آيات الله التي أنزلت إلى سائر أنبيائه ورسله آيات قويمة مستقيمة، هادية مهتدية، لا تميل عن الحق، ولا تسمح بالإفساد في الأرض، ولا تقبل ميلًا أو اعوجاجًا في سلوك الناس أو في علاقاتهم، فذلك –كله– مما جاءت رسالات الله لمقاومته لا لتعزيزه.

وقد وُوجه شعيب بمثل ما وُوجه به الأنبياء من قبله ومن بعده، بالتهديد بالطرد والنفي

﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ (الأعراف:٨٨)، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ الملأ المتحكم في أي بلد حين ينحرف عن آيات الله، وينصرف عنها، يشعر بامتلاكه للأرض، وامتلاكه لإرادة البشر الذين يعيشون عليها، وامتلاكه لحق السماح أو عدم السماح لهم بالمعتقد أو السلوك، كما يستشعر أولئك غرورًا وطغيانًا بأنَّهم هم الذين يمتلكون الوطن، ومن حق المواطنة فيه نفي أو سجن من يخالف إرادتهم أو يتمرد عليهم، حتى لو كانوا على الباطل والفساد والاعوجاج والانحراف. وذكر

هؤلاء الرسل الكرام وبيان أنَّهم قد كُذِّبوا من أهم أهدافه التسرية عن رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله –جلّ شأنه: ﴿**وَلا تَعْثَوْا**[٢٧] **فِي الأرض مُفْسِدِينَ**﴾، ؛ إنَّما يعني نهيّهم عن أن يقيموا على العثو في الأرض فسادًا حتى يصبح الفساد وكأنَّه صفة لازمة لهم لاصقة فيهم، فالعثو والإفساد في الأرض حين يداوم عليه العاصي والمنحرف والكافر ولا يتوب عنه من قريب يتحول إلى صفة لازمة له، وحينما تكون المفاسد صفتهم ولباسهم ورداءهم فإنَّهم لا علاج لهم –آنذاك– إلا إهلاكهم جميعًا كما اشتركوا في العثو وصاروا مفسدين كلهم.

إهلاك المكذبين لرسول الله:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (العنكبوت:٣٧)

وهؤلاء أخذتهم الرجفة، والرجفة زلزلة شديدة مهلكة؛ ولذلك فإنَّ الزلازل حين تنتشر أو تكثر فإنَّ أهل الإيمان لا يقتصرون على التفسير العلمي المجرد لها ، بل لا بد لهم من الاتعاظ بها، وتحويلها إلى درس فيتذكرون قصص الأمم التي أهلكت بهذه الزلازل ، فحين يقع زلزال ونتحدث عن مقاييسه بمقياس «رختر» أو سواه فلا يكفي أن نفسر ذلك علميًّا لأخذ الدرس ولمعرفة قدرة الله –جلّ شأنه– وعظمته وهو يتصرف في كونه هذا، الذي تفرَّد بخلقه وتدبيره، بل تكتمل العبرة والعظة بتذكر الأقوام الذين أهلكوا بمثل هذه الوسيلة، وعلينا الضراعة إلى الله –جلّ شأنه– بأن لا يجعل مصيرنا مثل مصيرهم.

---

[٢٧] عثا في الأرض أفسد، وبابه سما، وعثي بالكسر عثوا أيضا، وعثى بفتحتين، قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (البقرة: ٦٠) قلت قال الأزهري القراء كلهم متفقون على فتح الثاء. مختار الصحاح ج١:ص١٧٤

فهم قد أصبحوا في ديارهم هلكى، جاثين على ركبهم أمواتًا، وفي ذلك إشارة لرسول الله -ﷺ- إلى أنَّ القدرة المطلقة لرب العالمين يمكن أن تقضي على هؤلاء الذين يصدون عن القرآن وعنك، ويبغون العوج في آيات الله، ويفسدون في الأرض من مشركي قريش هم في قبضة الله -جلّ شأنه- لو شاء أهلكهم بالرجفة أو غيرها، وحينما يقول الله لرُسله ذلك، يشد من عزائمهم، ويقوي معنوياتهم، ويشعرهم بالشرف الذي أولاه الله لهم حين كلفهم بإصلاح ما أفسد الناس، ودعوة الناس إلى صراطه المستقيم، وهدايتهم بآياته وأنبيائه ورسله إلى سواء السبيل.

وفيه إشارة إلى أولئك الأنبياء المصطفين الأخيار، بأنَّهم يأوون إلى ركن شديد، وأنَّ الله الذي أرسلهم ومَنَّ عليهم باصطفائه، وفضلهم برسالته، قادر على إكراه مخالفيهم على الهداية لو شاء، ولولا أنَّ كلمته قد سبقت بجعل هذا الإنسان حرًا مختارًا، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، لأكره الجميع على الهداية، أمَّا الأنبياء أنفسهم فما عليهم إلا البلاغ، ليسوا بمسيطرين، ولا يليق بهم أن يكونوا جبابرة، بل هم هداة ودعاة، يستجيب لهم من يستجيب بإذن الله -تبارك وتعالى- ويرفض من يرفض غير متجاوز لقدرة الله أو متنقص منها .

قوم هود وقوم صالح:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (العنكبوت:٣٨)

«عاد» هم قوم «هود» كما جاء في سورة هود: **﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ (هود:٦٠)**، ولم يذكر الله -جلّ شأنه- في هذه السورة مجادلة هود لقومه هؤلاء، لكنَّها وردت في سورة الأعراف حيث قال

لهم هود: ﴿**يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ**﴾ (**الأعراف:٦٥**)، فكان جوابهم في منتهى الكبر الغبي، والاستعلاء المستكبر، على لسان الملأ أو النخبة الكافرة من قومه: ﴿**إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾ (**الأعراف:٦٦**)، فنفى عن نفسه السفاهة، وأكد على كونه رسولًا من رب العالمين، يبلغ رسالات ربه، وأنَّه الناصح الأمين لقومه: ﴿**أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ**﴾ – (**الأعراف: ٦٩ – ٧٢**) ، وليختصر الطريق على تلك النخبة الباغيَّة الطاغيَّة ، فقد أخبرهم بأنَّ سبب رفضهم له كونه رجلًا منهم، جاء لينذرهم ويذكرهم بنعم الله عليهم، وكيف استنقذهم الله –تعالى– من الطوفان، وجعلهم خلفاء في الأرض من بعد قوم نوح، وزادهم في الخلق بسطة، وسعة في الملك، وقوة في الأبدان، وقد ورد أنَّ القوم كانوا طوالًا، أطول من في العالم من رجال، وأقوياء في أبدانهم وأجسامهم.

وجادلوه في أسماء أصنامهم التي لم ينزل الله بها من سلطان، وحين توضع السلاسل في أعناقهم يوم القيامة ويسحبون بها إلى النار؛ سوف يتنكرون لهذه الأصنام ولأسمائها؛ وحين يسألون عنها: ﴿**... أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ**﴾ (**غافر:٧٣–٧٤**)، وفي سورة هود يتكرر الجدل بين هود وقومه عاد ولا ينتهي بأي اتفاق، ويعلن هود يأسه منهم فيقول: ﴿**فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى**

كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ (هود:٥٧). فلما جاء أمر الله بإهلاكهم نجَّى عبده ورسوله هودًا والفئة القليلة التي آمنت معه من جائحة الهلاك، وهي الرجفة، ومن عذاب يوم القيامة.

وفي قصة هود مع قومه –كما جاءت في سورة هود– أنَّهم في الوقت الذي عصوه فيه اتبعوا أمر كل جبار عنيد، فكأنَّ خيار الأمم منحصر إمَّا باتباع الرسل، وإمَّا بهيمنة الجبابرة والعتاة والمستبدين عليهم .

وأمَّا «ثمود» فهم قوم كانوا في شبة جزيرة العرب قال تعالى : ﴿**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأرض تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأرض مُفْسِدِينَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف: ٧٣ – ٧٩)** أرسل الله إليهم رسوله صالحًا، وطلبوا الآيات فأعطاهم الآية، وهي الناقة، وأمرهم أن يتركوها وشأنها تأكل في أرض الله ولا يمسوها بسوء، فهي آية طلبوها، وذكرهم صالح –عليه السلام– بأنَّ الله قد جعلهم خلفاء من بعد عاد، وبوأهم في الأرض، ومكَّنهم من بناء ما يمكن تسميته حضارة متميزة، فقد تعلموا كيف يختارون من بقاع سهول الأرض أماكن يبنون قصورهم فيها، وينحتون في داخل الجبال بيوتًا كذلك، فكأنَّ لهم مشاتي ومصايف، وكأنَّ لهم بيوتًا مألوفة، وبيوتًا متميزة يصعب على مهاجميهم اختراقها، أو النيل منهم وهم فيها، فذكرهم

صالح بنعم الله –تعالى– عليهم، وبهذه الرفاهيَّة التي مَنَّ الله عليهم بها، واستجابته لهم حين طلبوا الآية، وأنَّ ذلك كلّه من المفروض أن يمنعهم من السقوط في جريمة الإفساد فى الأرض والعثو فيها .

ويتصدى الملأ النخبة وأصحاب النفوذ لنبي الله صالح – عليه السلام –، ويتصدرون الأكثريَّة الصامتة من المستضعفين؛ ليقولوا لصالح ومن آمن معه ﴿...**إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ (**الأعراف:٧٦–٧٧**)، وظنُّوا أنَّهم قادرون وسابقون، وما يسبق أمر الله أحد، فجلّسوا في كبريائهم وغرورهم يسخرون بصالح والمؤمنين معه، ويقولون له: ﴿**ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ فأخذتهم الرجفة مثل قوم عاد، فأصبحوا في دارهم جاثمين، فتولى صالح عنهم وهو في أسى وأسف قائلًا: ﴿....**يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ** ﴾ (**الأعراف:٧٩**).

المنهج القرآنيّ في دراسة آثار الأمم السابقة:

﴿**وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ**﴾ (**العنكبوت:٣٨**)

وقد تركت مساكنهم وما تزال قائمة، خاصَّة المساكن المنحوتة في الجبال، وما تزال تُعرف بمدائن صالح، فالله –تبارك وتعالى– يقول لقوم مُحَمَّد –ﷺ–: ﴿**وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ**﴾ ويُفترض أن تعتبروا وتدركوا أنَّ من يفسد في الأرض بعد إصلاحها، ويتمرد على

الله وعلى ما جاء به رُسله، ويتبع الشيطان وما يزين به إليه؛ فإنَّه هالك لا محالة، ولن يغني عنه من الله شيءٌ.

وهنا نستطيع أن نرى إلى أي مدى غفل المسلمون عن بعض التوجيهات القرآنيَّة، فلم يبنوا عليها، ولم يستفيدوا بها، أو يحسنوا فهمها وتوظيفها، فما من بلد من بلاد المسلمين إلا وفيها آثار مختلفة، ووزارات أو إدارات ثقافة وآثار، تتجه في كثير من الأحيان إلى عكس الاتجاة المطلوب قرآنيًا، فالقرآن يوجهنا لدراسة الآثار دراسة المعتبر الباحث عن الدروس والعبر، لنستخلص من رؤية تلك الآثار أسباب قيام الحضارات وعوامل انحرافها، وأسباب انهيارها عندما تنهار؛ لنتجنب السقوط فيما سقطوا فيه، أو الهلاك بما أهلكوا به، ومن المؤسف أنَّ إدارات الآثار والثقافات تحفظ الآثار وتصونها لتبيِّن عظمة أولئك الكافرين الذين أهلكهم الله، ولكنَّها تتجاهل أسباب هلاكهم، ولا تربط ذلك بتاريخ رُسلهم، ولا بمصادر هدايتهم وعوامل انحرافاتهم، وآثار تلك النخب في تلك الانحرافات، وقد كان من الممكن أن تكون تلك الآثار الغنيَّة الكثيرة في بلادنا من وسائل الدعوة إلى الله، والهداية إلى سبيله، وتذكير الناس بالقيم التي جاء بها المرسلون، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث، كما أنَّ البعض قد ظن نتيجة ذلك الفهم الخاطئ المنحرف عن القرآن لوظائف الآثار وفوائدها؛ أنَّ ذلك قد يصرف الناس عن التوحيد، فدعا إلى تحطيم كل تلك الآثار، وهو فهم خاطئ كذلك، وكان الواجب أن تفهم وظائف الآثار في حياة الأمم في إطار هداية القرآن المجيد، لتكون وسيلة استبصار وتمييز للحق من الباطل، ولكن الذين لا يعلمون إلا القشور، لا يستطيعون أن يعلموا كثيرًا عن آيات الآفاق وآيات الأنفس، وكيفيَّة جعلها وسائل هداية واستبصار وفهم ووعي.

موسى وقومه:

﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأرض وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ (العنكبوت:٣٩).

ثم ينتقل السياق إلى ذكر هامان وزير فرعون الذي تقدم ذكره في سورة القصص: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (القصص:٣٨)، حين أمره فرعون أن يبني له صرحًا ليصل به –حسب ظنّه المريض– إلى إله موسى وقارون الذي جاء ذكره أيضًا في السورة نفسها: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (القصص:٧٦)، وقد ذكر أنَّ قارون كان من أقارب موسى، وإشارة القرآن الحكيم المعجزة أنَّه كان من قومه، أمَّا بعد ذلك أن يكون من أقاربه أو من الأبعدين فذلك لا يهم كثيرًا في الدورس المستخلصة.

فهامان أطغاه السلطان وقُربه من فرعون، وأمَّا قارون فقد بغى بالكنوز والأموال الطائلة التي مكَّنه الله –تعالى– منها فأصابه الغرور، وفي ذكرهما تذكير بالانحرافات وعوامل الاستبداد والطغيان التي يمكن أن تصيب الإنسان نتيجة تسلطه على المال أو تخويله السلطة المطلقة، وأيًا كانت أسباب الطغيان فإنَّها تعود إلى الغرور والشعور باستغناء الطاغية عن كل من عداه، واحتياج كل من عداه إليه: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ (العلق:٦–٧) وهذا الشعور بالاستغناء يكون عن اغترار بالمال أو بالجاه أو بهما معًا، وبعد الشعور بالاستغناء يأتي الإعراض والاستبداد، فالمستبد حين يستبد يرى الناس جميعًا في حاجة إليه، ويرى نفسه في غنى عنهم؛ ولذلك فإنَّه يطغى ويتعالى ويستكبر ويرى أنَّ كل من حوله دونه وأنَّه أعلى وأغلى وأعز، فقارون وفرعون وهامان كل هؤلاء لم يستمعوا لآيات الله التي حملها إليهم موسى،فاغتر قارون بماله، واغتر فرعون بجنوده وملكه، واغتر هامان بسلطانه

وقربه من فرعون ومشاركته له في جاهه، فاستكبر هؤلاء كلّهم عن اتباع موسى أو طاعته أو الاستماع إليه: ﴿**فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأرض وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ**﴾ (**العنكبوت:٣٩**).

المنهج القرآنيّ في جزاء الظالمين:

﴿**فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ (**العنكبوت: ٤٠**).

فبعد التمادي في الاستعلاء على البشر الذين يماثلونه ويشابهونه في كل شيء إلا فيما خوَّله الله له من سلطان؛ ، والاستعلاء على الخلق والاستغناء عنهم، يستعلي ذلك الإنسان الضعيف على خالقه –جلّ شأنه– مع أنه ليس في متناول إدراكه، فلا يدركه بالبصر ولا يستمع إليه بشكل مباشر ولا يراه إلا من بعد أن يأذن الله ويرضى في يوم الدين، فيظن واهمًا أنَّه يستطيع أن يسابق الله ويسبقه، فيفلت من عذابه، وأنَّ الله –تبارك وتعالى– لن يتمكن حسب زعم هؤلاء منهم،﴿**وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ** ﴾ (**الأنفال :٥٩**) إنهم لن يسبقوا الله بقول ولا بعمل، ولن يفلتوا من عذابه –جلّ شأنه– وكل من هؤلاء سيأخذه الله بذنبه، فهناك من يرسل عليه حاصبًا، وهي عبارة عن حصيات صغيرة لكنَّها تحملها الريح بقوة وبعاصفة فتتحول إلى حصيات مهلكة قاتلة على صغرها، وهناك من تأخذه الصيحة، مثل قوم ثمود الذين أرسل الله إليهم صالحًا وقوم هود، الذين أخذتهم الرجفة، قال –تعالى: ﴿**فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ**﴾ (**الحاقة:٥**) أي الصاعقة: ﴿**وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ**﴾ (**الحاقة:٦**)، ومنهم من خسف به الأرض مثل قارون ﴿**فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأٌ رْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ** ﴾ (**القصص :٨١**) وأمَّا قوم فرعون فقد أغرقهم الله وأخذهم أخذة رابية (أي

زائدة في الشدة) قال -تعالى: ﴿**وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً** ﴾ (**الحاقة:٩-١٠**) .

وهذا يعني أنَّ ما يحدث في الكون من أمور لا بد من أن ينظر إليه من جوانب عديدة فلا يكفي –كما أسلفنا- التفسير العلمي أو التنبؤ بوقوع شيء، فهذه كلها أمور تحتاج إلى دراسات يفترض أن لا تغيب عن أذهان العلماء والدعاة، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر وبصائرهم،. وما نوَّع الله في عذاب هؤلاء ووسائل إهلاكهم إلا لإفادة الدورس والعبر التي على الأمم الخالفة لهؤلاء والآتية بعدهم أن تستفيدها، وذلك بالعلم المتعمق الذي يتجاوز ظواهر الحياة الدنيا ويربط بين الدنيا والآخرة، وبين عالمي الغيب والشهادة، وبين الآفاق والأنفس، ويستفيد بذلك كلّه ليقدم للإنسان دروسًا وعبرًا وعظات تباعد بينه وبين الشيطان وسبل الشيطان وتأخذ بيديه إلى الصراط المستقيم.

فهل في ذلك ظلم لهؤلاء؟

الحقيقة أنَّ الناس يظلمون أنفسهم، والآن كل الفساد الذي لحق بالبيئة وظهر في البر والبحر والجو وفي مجاهل الغابات وأعماق المحيطات –كله- راجع إلى أنَّ الحضارة المعاصرة قد انحرفت في فهمها للطبيعة وعلاقة الإنسان بها وعلاقتهما بالله -تبارك وتعالى- فلم تفهم هذه الحضارة ذات العين الواحدة علاقات التفاعل بين الله -تبارك وتعالى- وعالم غيبه وأمره وبين الإنسان ابن الأرض وابن الطبيعة وبين الطبيعة ذاتها: ﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**﴾ (**طه:٥٥**).

فالإنسان مثلما انحرف عن هداية الله في ظل هذه الحضارة فتوهم أنَّه هو مركز الكون لا خالق الكون، وأنَّ له أن يستبد في سلوكه ونظم حياته بعيدًا عن الله -جلّ شأنه- وعن هدايته، انحرف في سلوكه مع الطبيعة، فتوهم أنَّ العلاقة بها علاقة صراع، فأخذ يصارعها ويحاول تدميرها ناظرًا إليها على أنَّها عدوّه وليست أُمّه التي كان عليه أن يتعامل معها برفق.

وهنا تبدو لنا عظمة الإسلام؛ فالشجرة المثمرة يعلمنا الإسلام احترامها والمحافظة عليها حتى في الحالات الاستثنائيَّة، حالات القتال والحروب والصراع يُنهى عن قطع الأشجار المثمرة، وعن استهداف العناصر التي لا علاقة لها بالقتال، كتلويث المياه، فالحروب لا ينبغي أن تستهدف إلا تحقيق العدل ولن تكون عادلة إلا إذا حُصرت في العناصر المحاربة وأسلحتها وما يخصها. أمَّا استهداف المدنيين وغير المقاتلين وتخريب الطرق والجسور وتلويث المياه، فهو تدمير وتخريب يخرج الحروب -حتى لو كانت أهدافها وغاياتها سامية- عن طريق العدل ليجعل منها حربًا ظالمة غير عادلة. وذلك ما خسرته البشريَّة حينما حاصرت الإسلام وقيمه ولم تستطع أن تستفيد مما جاء فيه لعلها تدخل في السلم كافَّة، ونحن لا نلوم العالم الآخر وحده على هذا الانحراف، بل يجب أن نلوم أنفسنا حينما استبدلنا الدعوة بالفتح، وما تزال البلدان التي دخلت الإسلام بالدعوة لا بالفتح تعتبر أقرب إلى الإسلام وأعمق وأشد التصاقًا به من تلك التي دخلت بعمليَّات فتح وغزو، والمتتبع للجغرافيا والتاريخ الإسلاميّ يجد مصداق ذلك في نماذج كثيرة، ومعظم ما دار من صراعات حتى بعد انحراف من انحرف من ولاة الأمور وغيرهم يجد مدى حرص من دخل الإسلام في أيام الملتزمين به من القادة العظام أمثال أبي بكر وعمر وعلى وعمر بن عبد العزيز وصلاح الدين وأمثالهم، ومدى انحراف من انحرف عن ذلك الهدي في عهود من ظنوا أنَّ الدولة الإسلاميَّة مثل غيرها تريد علوًّا في الأرض، وهي لم تكن تريد من ذلك شيئا، وما كان لها وما ينبغي أن يكون، بل كانت تعمل على إعلاء كلمة الله لا إعلاء كلمة بشر أيًّا كان.

كثر الحديث بين الهيئات الدينيَّة والسياسيَّة وقادة الرأي وقيادات المجتمعات المختلفة عن الحروب العادلة والحروب الظالمة وأنَّ الحروب الظالمة يجب على البشريَّة أن تُكثِّف جهودها وتتضافر شعوبها على محاربتها ومنعها، لكنَّ تلك الهيئات حينما تأتي إلى محاولة تعريف الحرب العادلة أو بيان الاختلاف بينها وبين الظالمة، تضطرب تعريفاتها وأقوالها اضطرابًا شديدًا وتعجز تمامًا عن إعطاء تعريف مقنع، وقد عجزت الإنسانيَّة المعاصرة عن وضع حد للحروب

الصغيرة منها والكبيرة، كما عجزت عن وقف سباق التسلُّح أو صناعة الأسلحة الفتاكة، ولا زلنا نرى مصانع الأسلحة تفاجئنا كل يوم بجديد أشد فتكًا وأكثر تدميرًا .

وتنفق الدول ثرواتها على التسلح وقد تتقبل أن تترك طوائف عديدة من أبنائها تحت خط الفقر أو تتمرغ بالجوع والعري وأوحال الأمراض وتُحرم من الأدوية لتوفير المال للسلاح والتسلح بأسلحة تجعل تطوراتها السريعة من كل سلاح يصدر قبل أشهر أو أسابيع فضلًا عن سنوات سلاًحا لا يساوي إلا ثمن الحديد والمواد التي فيه، لأنَّ الأسلحة الأحدث والأكثر تطورًا تجعله عديم الفائدة في مواجهة أعدائها. ومع أنَّ البشريَّة أعلنت عن رغبتها في سيادة السلام، وحاولت الماركسية أن تقدم نفسها علاجًا لمشاكل الصراع الكامنة في الفكر الرأسمالي والمتفشية في الفكر الغربي بكل جوانبه، ثم وجدت نفسها تنادي بصراع الطبقات وتدخل في حروب كثيرة مثلما دخلها الآخرون وقد تزيد. وكل بلد من البلدان الكبرى والدول المتسلطة يحاول أن يدافع عن حروبه وعمليَّات سيطرته على الضعفاء بمختلف الأسباب ويدعي أنَّ حربه عادلة وأنَّها كانت ضروريَّة. فأمريكا فعلت ذلك في حروبها كلّها، وكذلك فعل الاتحاد السوفيتي السابق وفعلتها أوروبا ومازالت الأرض عطشى للسلام.

فهل هناك حرب عادلة في هذا الزمن خاصَّة؟

الحق أنَّ الأسلحة المتطورة –التي لم يعد بإمكان أصحابها أن يوجهوها نحو الأهداف الحربيَّة وحدها– لم تعد تسمح بأي نوع من أنواع الحروب العادلة. فأسلحة الدمار الشامل بمستوياتها المختلفة تقضي على الأخضر واليابس والمسالم والمحارب والطفل والشيخ والجندي المقاتل وتهلك الحرث والنسل. والأسلحة المختزنة اليوم أصبحت لعنة على الأرض وأهلها قادرة على تدمير الكرة الأرضيَّة كلّها ست مرات أو تزيد والعاملون في الحقول السياسية والذين يتصدون لقيادة الشعوب معظمهم مرضى بجنون العظمة والاستعلاء والطغيان، سواء أكانت الدوافع وطنيَّة أو قوميَّة أو إقليميَّة أو مذهبيَّة أو أية دوافع أخرى. وحين نتأمل في

ذلك نجد أنَّ ما دعت إليه الكتب المنزلة والأنبياء والمرسلون من قيام السلام على الأرض والمحبة بين الناس أصبح بعيد المنال متعذر التحقق في ظل قيادات قام فكرها وفلسفتها وحضارتها على أفكار مريضة كأفكار الصراع والبقاء للأصلح (أي الأقوى) والعيش للأغنياء والشركات العابرة للقارات مع استباحة البحار والأنهار والصحاري لدفن النفايات المدمرة للإنسان والحيوان والنبات والطبيعة. فلم يبقَ للبشريَّة من وسيلة لتحقيق السلام إلا أن ترفض الحروب كافَّة بكل أنواعها بقطع النظر عن من ينشئها أو من الذي يذهب ضحيتها وتعمل على إيجاد المؤسَّسات والوسائل الكفيلة باحتواء جميع أسباب الصراع في العالم قبل استفحالها وبلوغ مستوى التصادم. وهذا الأمر لا نجده إلا في كتاب الله –تعالى– الذي أكَّد على وحدة الأرض كلّها، فقد خلقها الله لتكون بيتًا آمنا للإنسان، يولد عليها ثم يعيش عليها ما شاء الله له أن يعيش، ثم قدر له فيها أقوات الحياة: ﴿ **وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا** ﴾ **(فصلت:١٠)** . ولو أنَّ الناس آمنوا أنَّهم أسرة ممتدة، قد خُلِقُوْا من نفس واحدة، وخلق اللهُ منها زوجها، وبث منهما رجالًا كثيرًا ونساءً، وما جُعلوا شعوبًا وقبائل وأممًا: إلا ليتعارفوا، ويتآلفوا، ويتعاونوا، ويعمروا الأرض، ويستثمروها، ويقيموا الحق والعدل فيها.

والقرآن كتاب كونيٌّ، يستطيع أن يُوجِد هذا الوعي، ويبنيه في عقول الناس وقلوبهم،

آنذاك: لا يستحيل على البشريَّة أن تشق طريقها لبناء عالم واحد يكون بيتًا للإنسان يستيطع الإنسان أن يشبع حاجته بكل ما فيه إذا توافر الحق والأمن وانتفى البغي والحسد وحب الأثرة والاستعلاء، فآنذاك يمكن أن يظهر الهدى والحق، وتأتلف البشريَّة على قيم مشتركة تساعدها على الوعي بذاتها ومعرفة كل إنسان لما له وما عليه فتشرق الأرض بنور ربها وتعم المحبة الناس ويعم الأرض السلام. كما أن الخطاب القرآنيّ يرفض أن يتخذ الناس بعضهم بعضًا آلهة والآخرين عبيدًا مسخرين فالألوهيَّة منحصرة في الله وحده وكل البشر أمامه سواء ، أكرمهم عند الله أتقاهم.

والذي حملنا على الإسهاب في التعليق: أنَّ العالم يعيش اليوم تحت تهديد عدد قليل من الدول المستعلية المستكبرة؛ التي لا تتردد في إبادة أي شعب، يستهدفه الشيطان، ويدفعها لمهاجمته، وقد رأينا كثيرًا من حروب الإبادات الجماعيَّة من بعض تلك الدول.

ضرب الأمثال في القرآن:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(العنكبوت: ٤١-٤٢).

إنَّ الأمثال وعاء حكمة الأمم، وخزائن تجاربها، ووسيلة من أهم وسائل حفظ تلك التجارب والحِكم، وتناقلها بين الأجيال، وهي قبل ذلك، وبعده: من أدق أساليب التعبير، وأوجزها، وأبلغها؛ تأثيرًا في النفوس، ولذلك يقول تعالى : **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾**(البقرة: ٢٦) وحين تقصر -في غير القرآن- أساليب التعبير الأخرى عن استيعاب مراد المتكلم، أو يضيق إدراك المخاطب عن فهم المراد منه، فإن ضرب المثل يجعل ذلك كلّه سهلًا مُيَسرًا، مع إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه.

إن أمثال القرآن العظيم: مظهر من أهم مظاهر بلاغته وإعجازه، ودقة تصويره الفني، وسحر أسلوبه، فهي قد سحرتِ العربَ -مؤمنهم وكافرهم- وبانتْ حلاوتها، وظهرتْ طلاوتها؛ لعامتهم وخاصتهم، وبان تأثيرها فيهم أجمعين[٢٨].

[٢٨] يقول ابن القيم في "الأمثال في القرآن الكريم": "وقع في القرآن أمثال، وإن أمثال القرآن لا يعقلمها إلا العالمون، وإنما تشبيه شيء بشيء في حكمه وفي تقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر" ص١٧٣ ،١٧٤، تحقيق سعيد محمد نمر الخطيب، دار المعرفة بيروت، ١٩٨١".

والأمثال القرآنية تمثل عِلمًا من علوم القرآن المهمة، وبحثًا لم يُغفله أحد من المفسرين، أو البلاغيين، أو الكاتبين في علوم القرآن، ولكنهم قلّ أن يتناولوها بشكل شمولي؛ يبرز صور الإعجاز الجمالي الفني فيها، مع إصابة المعنى الموضوعي بأتم شكل وأكمل وجه.

وبعض أمثال القرآن تجسد النموذج وتشخصّه بحيث ننظر إليه وكأنه ماثل أمامنا شخصًا وعملًا وسلوكًا وأخلاقًا وتصرّفات، فتشهد أقبح إنسان وأسوأ عمل، وأرادأ سلوك يمكن أن يصدر عن إنسان، وأسوأ مصير يمكن أن يصير إليه، فلا تملك إلا أن تفرّ بنفسك وبدينك من مشابهته ومماثلته، واقرأ إن شئت: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ. وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ (**التحريم: ١٠-١١**) ففي هذين المثلين يضرب الله تعالى مثلًا للكفر والخيانة في بيتي نبوة، والإيمان والتقى والطهر في بيت كفر. فشخصية المرأة مستقلة، وهي مكلَّفة مسئولة، لها ثواب ما تفعل، وعليها جزاء ما ترتكب، وأمام كل امرأة في الدنيا يضرب القرآن العظيم هذين النموذجين: مثل المرأة لا يستطيع الكفر كله أن يصدّها عن الإيمان، ولا تحملها كنوز الفراعنة وقصورهم على الانتساب إليهم، بل تتبرأ من فرعون وعمله، وتترفع وتتعالى على قصره ودنياه وقومه، وتسأل الله تعالى أن يُنعم عليها ببيت بديل في الجنة، وأن ينجيها من القوم الظالمين، أي: زوجها وقومها، فهي مَثل ونموذج وأسوة لشخصية المرأة التي تستعلي على الدنيا كلِها، وتزهد في زوج هو أعظم ملوك عصره، وقصوره هي أفخم ما عرفته الدنيا –آنذاك– من قصور، ولا يفل من عزمها، ولا يضعف من إرادتها أنها امرأة وحيدة منفردة بين قوم ظالمين، تعيش في قصر جبار كان يقتل الناس على مجرد شبهة الإيمان، ثم يعطف القرآن عليها مريم ابنة عمران، فأيّة امرأة تقرأ هذا المثل ولا تتمنى أن تتأسى به شخصيَّة وإرادة وإيمانًا وسلوكًا واستقامة ومصيرًا؟!

إلى جانب ذلك ضرب المثل المغاير: المرأة المتحجِّرة القاسية، غليظة الطبع، التي تعيش في بيت نبوّة فلا تتأثر ولا تلين، ولكنها تخون البيت والزوج والنَّبيّ، وتُناصر الظالمين من قومها، ويجسِّد المثل القُرآنيُّ هذه الصورة البشعة للكافرتين الخائنتين في بيتي النبيّين الرسولين الصالحين، بجانب الصورة المشرقة لامرأة فرعون ومريم، وهل يملك أحدٌ أن يرضى لنفسه مماثلة الخائنتين ومشاققة الله ورسوله؟!

ونحوه قوله تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ**﴾(**الأعراف: ١٧٥-١٧٧**).

إنه مثل يضربه الله تعالى لصورة الانحراف عن سواء الفطرة، ونقض العهد مع الله تعالى، والنكوص عن آياته بعد العلم بها وفهمها، وذلك في صورة إنسان آتاه الله تعالى علما بآياته المنزلة، لكنّه –مع علمه بها – ينسلخ عنها بعد أن كانت تحيط به كثوبه، بل تلفه كجلده، لكن نداء هواه، وإخلاده إلى الأرض، والتصاقه بشهواتها ولذات طينها أقوى عنده وأولى بالاستجابة لديه من نداء آيات الله، فينسلخ عن الآيات ويلتصق بالتراب خالدًا إليه، والمثل يضربه الله تعالى لأي إنسان يتجاوز ما علمه الله تعالى، فلا يسمو ولا يرتفع بالعلم، بل يخلد إلى الأرض، والذي يتلو هذه الآيات وهي تصوِّر هذا المثل في مشهد حيّ متحرك، عنيف الحركة شاخِص السمات، بارز الملامح، واضح الانفعالات يحمل كل إيقاعات الحياة الواقعية إلى جانب إيحاء العبارات الموحِيَةِ، لا يمكن أن يرضى لنفسه مشابهة هذا المخلوق التعيس بأي حال من الأحوال.

وهكذا كل أمثال القرآن العظيم الأخرى:

- ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ (هود: ٢٤).
- ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ (إبراهيم: ١٨).
- ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ (إبراهيم: ٢٦).

- وتستمر آيات الأمثال، تصوّر النفوس، والقلوب، والأشخاص، والأعمال، والأقوال، والمشاهد، والأمم، والحضارات، وتضرب منها، ولها، الأمثال، فلا تغادر جانبًا منها، إلَّا أعطته من التوضيح، والتشخيص: ما يجعله وسيلةً من أهم الوسائل التربويَّة، ففيها إخراج ما لا يقع عليه الحسّ، إلى مستوى المحسوس، وإخراج ما لا يعلم ببديهة العقل، إلى ما يعلم بالبديهة، وإخراج مالم تجر العادة به إلى الأمر المعتاد، وإخراج ما لا تأثير له من الصفات، إلى ما له كامل التأثير،كما أنها من أفضل وسائل البيان والتعليم والإيضاح.

فإذا علمنا أن القرآن العظيم قد ضرب للناس من كل مثل: ﴿**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ**﴾ (**الروم: ٥٨**) نستطيع أن ندرك أن أمثال القرآن العظيم يمكن أن تزودنا بمنهاج تربويٍّ كامل، لا يغادر جانبًا من جوانب العملية التربوية إلا تناوله وفصّله وأوضح نماذجه بأفضل ما يكون الإيضاح، وهذا الجانب من الجوانب التي تتصل "بأمثال القرآن" وحده يحتاج إلى دراسة أو أكثر، توضح جوانبه المختلفة وتساعد التربويين على بناء ما يريدون من أفكار ونماذج في مختلف أركان العمليَّة التربويَّة.

وهناك جانب آخر من جوانب "أمثال القرآن" كنت أتطلع إلى أن أجد فيه دراسة جادَّة، ولم أطَّلع على ما يشفي الغليل فيه إلى الآن هو الأمثال القرآنية بوصفها مصدرًا من أهم مصادر الأحكام، وهذا يمكن أن يتَّضح في جانبين:

الجانب الأول: أنّ أمثال القرآن يَصْحَبها –دائمًا– تحسين أو تقبيح، فما حسَّنته فهو حسن، وهذا الحسن يمكن أن يعتبره الأصوليّ قدرًا مشتركًا بين الوجوب والندب والإباحة، واجتهاده فيه سوف يقوده إلى تحديد الحكم المناسب، إن لم يكن هناك دليل سوى الآية المثل.

وما قبَّحته الأمثال فهو قبيح، والقبح دائر هنا بين التحريم والكراهة، والمجتهد يبذل جهده لتحديد الأنسب منها، إن لم يكن له دليل غير ذلك المثل الآية، دون حاجة إلى النظر في صيغ الأوامر والنواهي الصريحة، ولذلك عدَّ الشافعي –رحمه الله– معرفتها من شروط الاجتهاد، ومما يجب على المجتهد معرفته على ما نقل الزركشي في البرهان عن البيهقي[٢٩].

وأما الجانب الثاني: فيتضح حين ندرك أن أمثال القرآن، ودعوة القرآن العظيم إلى الاعتبار بها هي التي رسخت في أذهان بعض الأئمة من قُراء الصحابة وفقهائهم ومَن جاء بعدهم فكرة "القياس الأصولي"، ووضعه دليلًا من أدلة الأحكام الشرعيّة، أو وسيلة منهجية من وسائل المجتهدين، هذا الدليل الذي نجمت عن الأخذ به ثروة فقهيَّة وفكريَّة، وعلاقة ذلك بأمثال القرآن العظيم موضوع آخر يستحق دراسة أو دراسات عديدة ليتضح أثر أمثال القرآن العظيم الفكري والفقهي ويظهر.

وحين نعلم أن اكتشاف "القياس الأصولي" كان الدعامة العلميّة الأولى التي قام عليها بناء "المنهج العلمي التجريبي" بعد ذلك، فإن الأهمية الكبرى التي تحتلّها "أمثال القرآن العظيم" تبدو –آنذاك– بجلاء شديد. لكن المؤسف أن نجد إسرافًا بلغ حدَّ التبديد والتبذير في جانب البحث اللغوي والبلاغي والبياني والنحوي في الأمثال القرآنيَّة، وقلَّة وشحًا في الجوانب الأخرى التي أشرنا إليها، ولعل في هذه الإشارات ما يُنبِّه لإعطاء هذه الجوانب الأخرى ما

[٢٩]. البرهان (٤٨٦/١)

تستحقه، وعلماء الاجتماعيات والإنسانيات هم المطالبون بتجلية هذه الجوانب وتوضيحها لخدمة كتاب الله تعالى وخدمة أغراضه في هذا المجال.

فأمثال القرآن محور أساس من المحاور التي نزل بها، وضرب القرآن المثل بالبعوضة فما فوقها والذباب والعنكبوت والنمل فيه تحد لأولئك القوم، وبيان لضآلة شأنهم، وضعف عقولهم. فقد وضعوا للعظمة والضعة مقاييس تحكموا فيها، فأراد الله -تبارك وتعالى- أن يبيّن لهم تفاهة تلك المقاييس وانحرافهم فيها، فهم يقيسون العظمة بالجاه والمنصب وأحيانًا بحسن المظهر والمنظر، وأحيانًا بوفرة المال، وما إلى ذلك من متاع زائل، فأراد -جلّ شأنه- أن يبيّن لهم أنَّهم مخلوقون، هو مَنْ خلقهم، وهو من يرزقهم، وأنَّه قد خلق معهم أممًا كثيرة، لأنَّه: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأرض وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ**﴾ (**الأنعام:٣٨**)، وأنَّ الله -تبارك وتعالى- ما فرَّط فى كتابه المنزَّل، ولا في كتابه المنثور المبثوث في «الكون» من شيء، فالجامع بين القراءتين والناظر في الكتابين يجد مصداق ذلك بوضوح في كل منهما، وأنَّ هذه الحشرات والمخلوقات التي يحتقرونها وقد يعيبون على رسول الله -ﷺ- وعلى القرآن ضرب المثل بها؛ تبدو وكأنَّها أقوى منهم في بعض المواقع، وأنَّهم أضعف منها وأقل حيلة وتدبيرًا، فالله لم يستح -بناء على ذلك- أن يضرب لهم مثلًا بالبعوضة فما فوقها، ولا بالذباب الذي يسلبهم شيئًا ولا يستطيعون استنقاذه منه، ويُبدي لهم ضعفهم أو مساواتهم له في ذلك الضعف: ﴿**ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾ (**الحج:٧٣**)، وهذا العنكبوت يبني بيوتًا من لعابه دون أن يحتاج لشيء آخر، فتتحول إلى خيوط مهما قويت فهى واهنة، لكنَّها تشكِّل بالنسبة له بيتًا قد يتناسب مع ضعفه وصغره واحتياجاته، وكذلك يفعل النمل وهم يدخلون مساكنهم يدخرون فيها احتياجاتهم، ولكن الله -تبارك وتعالى- استخلفكم أيُّها البشر على هذه الأمم -كلها- وعلى الكون بمجموعه؛ لتقيموا الحق والعدل فيها، كما خلقها الله بالحق وتكونون مستخلفين فيها بحق، فإذا استعليتم واستكبرتم واغتررتم فسيدفعكم ذلك باتجاه الجور والظلم والتقصير في القيام بمهام الاستخلاف.

وفي الآية التي معنا يضرب الله -تبارك وتعالى- لآلهة الكافرين وأصنام هم وأوثانهم مثلًا بالعنكبوت وبيتها الضعيف، فإنَّ اتخاذهم تلك الأوثان والأصنام والمعبودات من دون الله -تعالى- سوف يؤدي بهم إلى الهلاك، وقد ظنوا أنَّ تلك الآلهة المدعاة سوف تحميهم وهي لن تستطيع ذلك، فمثلهم -آنذاك- كمثل العنكبوت في ضآلة شأنها اتخذت من خيوط لعابها بيتًا تأوي إليه فلا يستطيع حمايتها لسهولة اختراقه من أي عدو من أعداء العناكب، وإنَّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت، وأوهن الأديان وأضعفها الأديان الشركيَّة، وأوهن الآلهة وأضعفها الأوثان والأصنام، فالمثل هنا يتحدى هذا الإنسان الطاغيَة المستكبر عن آيات ربه والرافض للاستماع إلى صوت النبوَّة ونداء الألوهيَّة الحقة، ويبيّن له السبب في ذلك وضلاله فيه، وأنَّ هذه الآلهة المصطنعة والأرباب المتفرقين لن يغنوا عنه من الله شيئًا، فهو وكل ما اتخذه من آلهة وأرباب لا يساوون شيئًا، ولا يُقام لهم يوم القيامة وزنًا، وهذه المقاييس التي يتفاخرون بها لن تغني عنهم من الله شيئًا، لوهنها وضعفها وما تدل عليه من ضعفهم.

سبب ضرب الأمثال:

﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت:٤٣)

وهذه الأمثال التي يواجهونها بكبرهم وغطرستهم ما يعقلها ولا يدرك مغازيها ومراميها إلا العالمون لا الذين: **﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم:٧)** بل أولئك الذين يخشون الله ويتقونه لما علموه من جوانب عظمته وقدرته وألوهيَّته وربوبيَّته -جلّ شأنه.

التفكر في آيات الله:

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأرض بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (العنكبوت:٤٤).

وبعد أن ضُرب المثل انتقل السياق للتوكيد على أنَّ الله –تعالى– خلق السموات والأرض بالحق، فلهذا الخلق بالحق حكم وغايات ومقاصد وأهداف، وحين ينحرف المنحرفون بها عن تلك الأهداف والحكَم؛ فإنَّ الله –تبارك وتعالى– يذكر بأنَّ هذا الخَلق خُلق بالحق، فالأصل في الوجود هو الحق، وأمَّا الباطل فهو خلاف الأصل؛ ولذلك فإنَّ الباطل زائل لأنَّ الباطل كان زهوقًا ولا قرار له، فهو مجتث من فوق الأرض ما له من قرار وما له من عمق، والحق هو الأبقى وهو الدائم والمستمر، والإنسان الذي خلقه الله بالحق أيضًا استخلفه في هذا الكون؛ ليقيم الحق والعدل وينتصر وينتصف دائمًا للحق لا ينحرف عنه بحال، وحين يتفكر الإنسان في نفسه وفي آفاق هذا الكون فإنَّه سيدرك – لا محالة – أنَّه مسئول عن مقاومة مشروع الشيطان ، ومسئول عن إحقاق الحق ونفي الباطل وهداية البشر ليكونوا عباد الرحمن لا عباد الشيطان ولا أولياء له.

دعوة إلى إقران العلم بالعمل:

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت:٤٥).

ثم يأتي السياق – بتناسب وتناسق – ويقول لرسول الله –ﷺ– إنَّك تحمل هذا الحق وتستطيع أن تخرج الناس من ظلمات الباطل إلى أنوار الحق فالوحي الذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق، فاتلوه على الناس: **﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ﴾ (العنكبوت:٤٥)**، ولكن لا بد من قرن العلم بالعمل وتلك من أهم الفوائد التي تجنيها البشريَّة من الرسل الكرام، أنَّهم يستطيعون أن يعملوا بالوحي الذي أُنزل عليهم، ويهيئوا للناس سبل اتباعهم والاقتداء بهم والاهتداء بهداهم في معرفة الكتاب والعمل بآياته، ومعرفة كيفيَّة العمل به، وتطبيق ما جاء فيه، فقرن بين الأمر بالتلاوة

والأمر بإقامة الصلاة، مبينًا أنَّ ذلك هو الإطار الذي يبرز الحق ويجعل الناس قادرين على رؤيته، ﴿**اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ**﴾ (**العنكبوت:٤٥**) أي اقرأ ذلك الوحي الذي أنزلناه عليك لتخرج الناس به من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، **{وأقم الصلاة}** ليتعلموا كيف يتلون هذا الكتاب حق تلاوته، فيتعلمون آياته ويتبعونها ويجعلونها بحيث يراهم الناس عليها فيقتدون بأفعالهم، وكأنَّه يريد أن يبيّن لنا لماذا تم الربط بين تلاوة الكتاب النازل بالحق وتعليم الناس الوحي، وأمَرَه -ﷺ- بإقام الصلاة لأنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، و«الفحشاء» عرفناها في غير موضع بأنَّها: القول أو الفعل المتناهي في فحشه، و«المنكر» هو: ما تستنكره الفطرة والعقول السليمة والقلوب المستقيمة والشرائع الحكيمة، فذلك -كلّه- تذكرنا به الصلاة الخاشعة، صلاة القانتين: ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ**﴾ (**الزمر:٩**)، هذا النوع من الصلاة هو الذي يذكرنا بضرورة الابتعاد عن ممارسة الفحشاء في القول والعمل أو الاقتراب من المنكر، وأنَّ ذكر الله -جلّ شأنه- هو العاصم للإنسان من الانحراف: ﴿**وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾ (**الزخرف:٣٦**)، فالإنسان لكي يستقيم ويبتعد عن الانحراف بكل أنواعه ولا يسقط في فحشاء أو منكر؛ فإنَّه لا بد له من استدامة ذكر الله -تبارك وتعالى- وعدم الغفلة عنه وعدم نسيانه في أيَّة لحظة، فإذا ذكر الإنسان الله كذكره أباه وكذكره نفسه واستحضر وجوده -جلّ شأنه- ومراقبته له كأنَّه يرى الله، فإنَّ لم يكن يراه لأنَّه -جلّ شأنه- لا تدركه الأبصار فإنَّ الله -تبارك وتعالى- يرى الإنسان ويعلم ما يخفي وما يعلن، وهو معه أينما كان وكيف كان.

وهذا الذكر هو الذي يعطي لحياته المعنى وهو الذي يباعد بينه وبين الكآبة والشعور بالعبث أو العدم.

والصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر هي صلاة الخاشعين القانتين المخبتين لله -سبحانه وتعالى- الذين إذا قاموا إلى الصلاة نشطوا إليها واستيقنوا أنَّهم قائمون للوقوف بين يدي الله -تبارك وتعالى- يتلون آياته ويسبحون بحمده ويستغفرونه ويتوبون إليه، ويذكرون أنفسهم بموقفهم بين يديه في الآخرة، فتلين قلوبهم وتخشع جوارحهم، ويدركون أنَّهم إنما وجدوا في هذه الحياة الدنيا لتحقيق غايات الحق من الخلق، وعبادة الله تعالى في كل حين، وذكره -جلّ شأنه- في كل موقف، والذكر ليس مقصورًا على ذكر أسماء الله أو صفاته، فتلاوة القرآن ذكر، والوقوف عند الحلال وعدم تجاوزه إلى الحرام ذكر، ورفض الحرام لأنَّ الله قد حرمه ذكر، والنظر في خلق الله وتذكر نعمه ذكر، وبذلك يستطيع الإنسان أن يكون في كل شأن ذاكرًا لربه -جلّ شأنه- غير غافل عنه لا يعطي فرصة للشيطان لاجتياله أو الانحراف به: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**﴾ (**الأعراف:٢٠١**) لا تعتري قلوبهم الغفلة، ولا تعشو أبصارهم عن تأمل ما في الكون، ولا تغفل قلوبهم أن تقول: ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ (**آل عمران:١٩١**) وذلك يعني أنَّ الإنسان إذا راقب نفسه وحاسبها وأراد لها الاستقامة فإنَّه يستطيع أن يجعلها على ذكر لله -تعالى- في كل حين.

كيفية مجادلة أهل الكتاب:

﴿**وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ (**العنكبون:٤٦**).

ثم يقود السياق إلى وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله وهي المجادلة بالتي هي أحسن ، فإن دعوة الناس للإيمان بالله –جلّ شأنه– والإيمان بالبعث والنشور والحساب والجزاء، قد يقتضي من المؤمنين ومن أبناء أمَّة الإجابة مجادلة أمَّة الدعوة و، فيبادر القرآن الكريم إلى تعليم أبناء أمَّة الإجابة كيفيَّة مجادلة أهل الكتاب، فينهاهم الله –جلّ شأنه– أن يجادلوهم إلا بالتي هي أحسن، أي اتباع أحسن الأساليب وأكثرها تأثيرًا وفاعليَّة في نفوسهم وقلوبهم، فهناك آيات تتلى عليهم ورسالة تبلغ قد يقابلونها بالتكذيب والرفض، وها هنا لا بد للنبي وحملة الدعوة من محاورتهم ومجادلتهم، فإذا سلمت عقولهم وقلوبهم من آفاتها وأمراضها ولم يتحكم الهوى فيها، فقد تستجيب لآيات الله، وإلا فقد يلجأون إلى الجدال، فلا ينبغي أن يستدرجنا ذلك إلى نوع من الغضب وإساءة الأدب: ﴿**وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا**﴾ (**الإسراء:٥٣**) بل لا بد من مجادلتهم بأحسن ما يكون عليه الجدال، ومحاورتهم بأفضل الأساليب، مع العلم بأنَّهم يعرفون الحق الذي جاء به رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– فهم يجادلون في شأن يعرفونه ويدركون أنَّه حق، ويمارون في آيات يعلمون صدقها، فالجدل –إذن– هنا ليس جدلًا من أجلّ إثبات أنَّ ما ندعوهم إليه هو حق؛ بل من أجلّ استثارة كوامن الخير في نفوسهم واستدراج عقولهم للتفكير، ومحاولة فتح قلوبهم لاستقبال نسائم الحق، فنحن نعرض عليهم حقًا يعرفونه وصدقًا يدركونه، فكأنَّنا والحالة هذه ينصب جدالنا معهم بالتي هي أحسن على محاولة السمو بهم إلى الاعتراف بما يعرفون، وإيصالهم إلى مستوى الاستعداد والرغبة والجرأة على قول الحق الفطري الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم؛ ولذلك فإنَّ الخطاب الذي يخاطب به هؤلاء فيما يعرف اليوم بحوار الأديان لا بد أن يصاغ انطلاقًا من هذه الآية الكريمة ونظائرها، وقوله –جلّ شأنه" ﴿**بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ في حاجة من الدعاة إلى فهم عميق لتحديد التي هي أحسن من بين مختلف طرق الخطاب، فيعلمنا الله –جلّ شأنه– أنَّه نزل لنا أحسن

الحديث: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جلّودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جلّودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾ (**الزمر:٢٣**) فيستخدم الداعية ما نزله الله – جلّ شأنه– ليدعو الناس به لا بشيء غيره لأنَّه أحسن الحديث ولأنَّه الذي قال الله فيه: ﴿**الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إلى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ (**إبراهيم:١**).

وتختلف مخاطبة من لا يعرف عن مخاطبة العارف بالشيء ولكنَّه لأسباب نفسيَّة عديدة جعلته ينكر ما عرف، ويبدي رفضًا أو تجاهلًا لما علم، فقد سبقت لهؤلاء مقولات ألفوها، وقامت لهم فيما هم عليه مصالح ارتبطوا بها، ولا بد للداعية أن يأخذ كل هذا بعين الاعتبار وهو يوجه دعوته وخطابه إليهم، ثم تشير الآية الكريمة إلى أنَّ من بين هؤلاء المدعوين من يمكن أن يوصفوا بالظلم؛ ومن الظلم إشراكهم بالله –جلّ شأنه– و: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ (**لقمان:١٣**)، وهذا يجعل هذه الفئة منهم مستحقة لخطاب آخر غير خطاب أولئك الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، خطاب مناسب لذلك الظلم، وقد يكون ظلم هؤلاء لأمم غيرهم كأن يكونوا وقد تلبسوا بالباطل وأخرجوا مؤمنين من ديارهم وقاتلوهم على دينهم، ولهؤلاء ولا شك نوع آخر من المعاملة يختلف عن معاملة أولئك الذين لم يتلبسوا بجرائم الإكراه على الدين وفتنة المؤمنين وإخراجهم من ديارهم وقتالهم لإرجاعهم عما آمنوا به وما إلى ذلك من ظلم.

فهؤلاء لهم تعامل آخر، أمَّا الذين لم يقاتلوا المؤمنين في دينهم ولم يخرجوهم من ديارهم ولم يظاهروا على إخراجهم؛ فإنَّ الدعاة مطالبون مع سائر أمَّة الدعوة ببر هؤلاء والإقساط إليهم والعناية بهم والمجادلة بالتي هي أحسن، وتبيّن لنا الآية كيف نفتتحها فيقول –جلّ شأنه: ﴿**وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ**

وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبون:٤٦). ويفترض أن تكونوا مثلنا لأنَّ ما أنزل إليكم لا يختلف عما أنزل إلينا، ولذلك آمنا به: **﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾** فهو لم يأمرنا بغير ما أمركم به، ولم يطلب منا شيئًا غير ما طالبكم به، وبالتالي فنحن وأنتم كان ينبغي أن نكون له مسلمين، ولكن ما دمتم قد اخترتم شيئًا آخر فلكم ذلك، فإنَّه –جلّ شأنه– قال: **﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ (الأنعام:١٠٤)** وقال –جلّ شأنه: **﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(الكهف:٢٩)** فعلى الدعاة أن يعملوا دائمًا على إيجاد الأرضيَّة المشتركة وبناء القاعدة التي نتفق عليها ثم ننطلق منها لحل ما نختلف فيه لنصل إلى الكلمة السواء، التي ليس فيها فظاظة ولا غلظة ولا تنفير، ولا يراد منها علوًّا في الأرض ولا فسادًا.

القرآن نور وهداية:

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الْكَافِرُونَ﴾ (العنكبوت:٤٧).

يبيّن الله –جلّ شأنه– أنَّه قد أنزل على عبده مُحَمَّد –ﷺ– الكتاب، وهؤلاء الذين آتاهم الله الكتاب من قبل من يهود ونصارى آمن بعضهم به وعلم أنَّه يحمل مثل النور الذي حملته كتبهم ومثل الهدايَّة التي جاء بها الرسل من قبل، وبعض هؤلاء القوم من قريش أيضًا يؤمنون به ويصدقونك فيه، أمَّا أولئك الذين يبدون لك غير ذلك فإنَّهم جاحدون، والجحود: نفي الحق مع معرفته، فالجاحدون يعرفون الحق ولكنَّهم ينفونه، وهؤلاء هم الكافرون؛ لأنَّ الكفر في أصله اللغوي يأتي من الستر والتغطية المتعمدة المقصودة، فهم كأنَّهم يغطون على الحق الذي جئت به، ويسترونه لئلا يراه الناس ويتعمدون الجحود به بين الناس وإعلان نفيه؛ كبرًا وغرورًا وغطرسة واستعلاء منهم، فهؤلاء لا ينبغي أن يحزنك جحودهم أو يؤذيك استكبارهم وغرورهم فهم كافرون.

أميَّة الرسول دليل على صدقه:

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت:٤٨).

ومن كان من الناس في ريب مما جئت به فيكفي أن ينظر في تاريخك وسيرتك وطبيعتك، فأنت من شعب أمي ما جاءه قبلك من رسول، وأنت لا تقرأ ولا تكتب، فلو كنت من غير الشعوب الأميَّة، وكنت متقنًا للقراءة والكتابة، لارتاب المبطلون الموغلون في الباطل المدمنون للشكوك والريب، ولكن اخترناك من الأميين؛ من شعب أمي ما جاءه من نبي ولا رسول قبلك، واخترناك أميًّا لا تقرأ ولا تكتب لنقطع على هؤلاء أي سبيل للتشكيك فيك، وممارسة الريب والشك فيما أوحي إليك، ومع ذلك فإنَّهم يجحدون.

الحق المبين:

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الظَّالِمُونَ﴾ (العنكبوت:٤٩).

إنَّ هذا الكتاب الذي أنزلناه إليك هو آيات بينات واضحات ظاهرات ناطقات بالحق المبين، فيها ذكرى لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وهذه الآيات البينات ليست خافية على علماء بني إسرائيل يهودًا كانوا أو نصارى، قال –جلّ شأنه: **﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء:١٩٧)**، وقال: **﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ (البقرة:١٤٦)**، فهو آيات بينات في صدورهم تعرفه

قلوبهم ، وتنكره ألسنتهم وتجحد به: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الظَّالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٩).

الآيات البينات لا تشبه الآيات الحسيَّة:

﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (العنكبوت: ٥٠)

القائلون ذلك هم هؤلاء الذين ظلمو أنفسهم بذلك الجحود والذي صدهم ما كانوا يدعون من دون الله عن الإيمان به. ومما أسهم في صدهم عنه أنَّ آياته البينات لا تشبه الآيات الحسيَّة التي يفاخرون بها، والتي لم يشهدها إلا الجيل المعاصر لأنبيائهم مثل عصا موسى ويده وباقي الآيات التسع التي أعطاه الله إياها وكذلك إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لعيسى –عليه السلام–، فهذه الآيات الحسيَّة التي يدَّعون أنَّها أهم وأقوى من آيات الكتاب المبين، هي عند الله –جلّ شأنه–[٣٠] وما كان منها شيء يعجزه –جلّ شأنه– وكأنَّ الله –تعالى– اختار أن تكون آيتك يا مُحَمَّد، هذا القرآن المبين الذي يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين، وهو دائم باق كأنَّه نبي مقيم لن يتوقف عطاؤه حتى

[٣٠] قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله–: قال الله تعالى: {قل} يا مُحَمَّد: {إنما الآيات عند الله} أي: إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم؛ لأن ذلك سهل عليه، يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنما قصدكم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالى: {وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها} [الإسراء: ٥٩] .
وقوله: {وإنما أنا نذير مبين} أي: إنما بعثت نذيرا لكم بين النذارة فعلي أن أبلغكم رسالة الله و {من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا} [الكهف: ١٧] ، وقال تعالى: {ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء}. تفسير القرآن العظيم
المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) المحقق: سامي بن مُحَمَّد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م ٢٨٧/٦

يرث الله الأرض ومن عليها،[٣١] ولكن أولئك الذين ابتلوا بقصر العقول وضآلة الأفهام وعمى البصائر، يقدِّمون الأيات الحسيَّة الفانية على آيتك الباقية الدائمة والخالدة – القرآن الكريم– ويقولون في معرض مجادلتهم لك وصد الناس عنك وهو في قلوبهم آيات بينات يقولون: ﴿**لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ**﴾ (**العنكبوت: ٥٠**)، **كما قالوا: ﴿لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ**﴾ (**القصص:٤٨**). إلى غير ذلك مما حكاه عنهم القرآن الكريم.

إنزال الكتاب رحمة:

﴿**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (**العنكبوت٥١**).

فهؤلاء الذين يطلبون الآيات ويبحثون عن أصول ومراجع خارج هذا القرآن ويطالبونك بما لم ننزل عليك؛ لو أرادوا الهداية والاستقامة والوصول إلى الحق لكفاهم كتابنا هذا الذي ينطق بالحق، والذي يتلى عليهم والذي يسرناه بلسانك ليكون في مقدورهم فهمه وتدبره. أو لم يكفهم هذا؟!

وهذه آية عظيمة لا تختص بأولئك الذين يجادلون رسول الله –ﷺ– ويطالبونه بالمعجزات الحسيَّة والآيات المنظورة، والخوارق المشاهدة، بل تشمل الناس –كافَّة–

---

[٣١] وفي هذا المعنى جاء الحديث: عن أبي هريرة، قال: قال النبي ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» رواه البخاري باب: كيف نزل الوحي، وأول ما نزل، أخرجه مسام في كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا مُحَمَّد ﷺ رقم ١٥٢

(أعطي ما مثله آمن عليه البشر) أجري على يديه من المعجزات الشيء الذي يقتضي إيمان من شاهدها بصدق دعواه لأنها من خوارق العادات حسب زمانه ومكانه. (أوتيته) المعجزة التي أعطيتها. (وحيا) قرآنا موحى به من الله تعالى يبقى إعجازه على مر الأزمان ولذلك يكثر المؤمنون به ويوم القيامة يكون أتباعه العاملون بشريعته المنزلة أكثر من الأتباع العاملين بالشرع الحق لكل نبي] راجع الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري المؤلف: مُحَمَّد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي المحقق: مُحَمَّد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ. ١٨٢/٦

وخاصَّة الذين آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي أنزل الله عليه، فهؤلاء يفترض أن يكون الكتاب كافيًا ومغنيًا لهم عما سواه، ومع ذلك فإنَّنا نجد كثيرًا من الناس ومنهم المسلمون لا يكتفون بالكتاب الكريم ويبتغون الهداية خارجه، وبعيدًا عن آياته، فالآية نص بأنَّ هذا الكتاب كاف لهم، وأنَّه كما يُغْني عن الآيات الحسيَّة والمعجزات، فإنَّه يغني عن كثير من العلوم والمعارف، والأدلة التي اصطنعوها من خارجه، وزعموا أنَّها أدلة، إنَّ هذه الآيات – آيات الكتاب– رحمة وهدى وذكرى ونور وبصائر لقوم يؤمنون: ﴿**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ**﴾ (**فصلت: ٤٤**).

الله شهيد عليكم:

﴿**قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأرض وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ (**العنكبوت: ٥٢**).

فهو يشهد عليكم بما كذبتم واستكبرتم ورفضتم وجحدتم، ويشهد على أنَّني بلغت رسالته وأديت إليكم أمانته ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين، فهو شهيد عليَّ وعليكم؛ لأنَّ علمه المحيط به: ﴿**يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأرض وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ (**العنكبوت: ٥٢**).

وكأنَّه يريد أن يقول لهم: أنتم ظالمون وجاحدون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

لكل شيء أجلّ محدد:

﴿**وَيَسْتَعْجِلّونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجلّ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**﴾ (**العنكبوت: ٥٣**).

ثم تأتي هذه الآية لتبيّن لنا مدى سفاهة هؤلاء ومدى غطرستهم واستعلائم وكبريائهم؛ حيث يستعجلّون رسول الله-ﷺ- بالعذاب ويطالبونه - بدلًا من أن يستجيبوا له ويؤمنوا به- بإيقاع العذاب عليهم، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ (**الأنفال:٣٢**)، والله -تبارك وتعالى- **يقول:** ﴿**وَلَوْلا أَجلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ** ﴾ أي إنَّ عدم الاستجابة لهم وإنزال العذاب بهم ليس لعجزنا عن ذلك، ولا لأنَّهم على الحق، بل لأن لهذا الكون سننه وقوانينه التي لا يخضع شيء منها لإراداتهم ولا لمطالبهم، وما يحميهم من عذابنا اليوم وإنزاله بهم؛ إلا كلمتنا والأجلّ الذي سميناه وحددنا زمنه في علمنا، فهناك أجلّ لكل فرد في الدنيا، وسَيَرى كل واحد من هؤلاء بداية العذاب حين تأتيه ملائكتنا يتوفونه فيبسط إليه أيديهم ويقولون له ولأمثاله: ﴿**أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ**﴾ (**الأنعام:٩٣**)، وذلك الأجلّ الذي قد قضاه الله لكل فرد، ثم يأتي العذاب الأكبر وهو الأجلّ المسمى عند الله؛ سوف يأتيهم العذاب الذي يستعجلّون به من فوقهم ومن تحت أرجلّهم، سيأتيهم عندما يأتي الموعد الذي حددناه وأقتناه وجعلناه أجلًا لإنزاله بهم، وليأتينهم ذلك العذاب: ﴿**بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**﴾.

علام يستعجلّ هؤلاء السفهاء؟

﴿يَسْتَعْجلّونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (العنكبوت: ٥٤)

ثم يقول -جلّ شأنه: ﴿**يَسْتَعْجلّونَكَ بِالْعَذَابِ**﴾ (**٥٤**) باستفهام إنكاري، فهذا العذاب الواقع بهم لا محالة، علام يستعجلّ هؤلاء السفهاء؟! على بلوغه والوصول إليه وكأنَّه أمر محبب للنفوس أو مطلوب للقلوب، ولو أنَّهم عقلاء كما يدَّعون لاستعجلّوا الخروج من الكفر والعناد، لئلا يسقطوا في ذلك العذاب القادم لا محالة، والمحيط بهم بما كفروا بالله

وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا، وإذا كانوا لا يستشعرون ذلك؛ فذلك لضعف أبصارهم وانطماس بصائرهم.

للعذاب أنواع:

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجلّهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت:٥٥)

وليعلم هؤلاء أنَّه سيأتيهم العذاب ويغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلّهم، ويقول – جلّ شأنه– لهم وتقول ملائكتُه: **﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**، إنَّ هذا العذاب سوف يجدونه أنواعًا، لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل، فعلام يستعجلّ هؤلاء الأغبياء ذلك العذاب الأليم .

أرض الله واسعة:

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ (العنكبوت:٥٦)

ثم يلتفت السياق إلى الذين آمنوا بذلك النداء الإلهي المحبب **﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾** فأنتم أيُّها المؤمنون بمكة وفي كل مكان يضطهدكم فيه أولئك المشركون الظالمون، اعلموا أنَّ أرضي واسعة وأنتم أولى الناس بها: **﴿أ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء:١٠٥)**، وأنتم عُمارها والمستخلفون فيها، لا ينبغي أن تتنازلوا عن إيمانكم نتيجة اضطهاد هؤلاء وعدوانهم، فلا تعطوهم فرصة استضعافكم ومصادرة حريَّاتكم ومنعكم عن مزاولة فرائضكم وما أمرتكم به؛ لأنَّ أرضي واسعة، فهاجروا فيها وستجدون فيها مراغمًا كثيرًا وسعة كما قال عز من قائل: **﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأرض مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (النساء:١٠٠)**.

المرجع في النهاية إلى الله:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت:٥٧).

ولا تخشوا من الهجرة فإنَّ أدرككم الموت أو القتل فإنَّ أجركم يقع على الله –جلّ شأنه: **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران:١٨٥)**، فلا ينبغي أن يمنعكم تعلقكم بملك أو موطن أو ذكريات من الهجرة إذا كان لا سبيل لنشر الدعوة إلا بها لا يمنعنكم ذلك من أن تهاجروا فأنتم عمار الأرض والخلفاء فيها، وأنتم تنتمون لخير أمَّة أخرجت للناس لتكون مثلًا ونموذجًا للبشريَّة كلّها، فأنتم لستم من الأمم المدخلة مثل بني إسرائيل الذين قيل لهم: **﴿ادْخُلُوا الأرض الْمُقَدَّسَةَ﴾ (المائدة:٢١)**، أنتم أبناء أمَّة مخرجة قلنا لها: **﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران:١١٠)**، فأنتم مسؤولون عن إيصال هذا النور الذي حمله رسول الله–ﷺ– إليكم إلى بقاع الأرض وإلى البشريَّة جميعها، لذلك صرتم: **﴿أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣)**، فأنتم فى الحياة الدنيا تتخذون من الأرض دارًا و: **﴿بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ (النحل:٨٠)**، لأنَّكم بالدين تعيشون وبالدعوة تحيون، فإذا ضاقت عليكم أرض ولم تفسح صدرها لقبول دعوتكم والاستجابة لربكم ولرسوله –صلى الله عليه وآله وسلم– فإنَّ بقيَّة الأرض في حاجة إليكم، فأنتم أمَّة موطنها حيث يكون دينها، لا حيث تكون مصالحها، أنتم أمَّة تحمل النور والخير إلى البشريَّة كافَّة، فلا ينبغي أن تقبلوا الدنيَّة والاستضعاف والذلة والاستكبار، **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأٌّ رْضِ قَالْواْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيراً إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَآءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً فَأُوْلئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً**

غَفُوراً وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأٌ رْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ **(النساء:٩٧ – ١٠٠)** فالله –جل شأنه –يدعوهم إلى اتخاذ الأرض دارًا لهم حتى لو أدت إلى انفصالهم أو ابتعادهم عن بلدان بها نيطت عليهم التمائم –كما يقال– أو أنَّها كانت مواطن لآبائهم وأجدادهم، فالمؤمن المسلم موطنه حيث تعلو كلمة الله، وموطنه حيث يجد فرصة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإعلاء كلمة الإيمان وخفض كلمة الكفر والشرك، فإذا خفت القتل وأنت في طريقك مهاجرًا إلى الله فسيقع أجرك على الله، ولن تموت إلا بأجلّك، وما دام الأجلّ واقعًا فأن تموت وأجرك على الله ثابت خير لك من أن تموت حتف أنفك مستذلًا مستضعفًا.

بشرى للمؤمنين:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (العنكبون:٥٨–٥٩).

إنَّ هذه الآيات تبدأ بتشريف عباد الله المؤمنين بذلك النداء المحبب الذي يضيفهم إلى الله –تعالى– فهم عباده يحتفي بهم فهم الذين قرنوا الإيمان بالعمل الصالح ، وتحملوا المشاق من أجل عقيدتهم وأحسنوا التوكل عليه سبحانه ، فصبروا على الاضطهاد واستعذبوا الغربة من أجل الدين فلا بد وأن يجزوا الجزيل ، وحسبهم شهادة رب العالمين لهم ، إنهم يوم الفزع الأكبر آمنون ، ومستقرهم الجنة تجري من تحتها الأنهار نعم أجر العاملين .

ويرزقكم من حيث لا تعلمون:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (العنكبوت: ٦٠).

فانظر في هذا الكون الفسيح وإلى سائر الأمم التي خلقها الله -تبارك وتعالى- من دواب وحيوانات وطيور وغيرها، أهناك دابة أو طير يحمل معه رزقه؟! لا، إنَّ الطيور تغدو خماصًا وتروح بطانًا، والطيور قد تهاجر آلاف الأميال في المواسم المختلفة في العام ذاهبة وآيبة لا تحمل معها شيئًا، الله يرزقها، وحين تتوكل على الله -جلّ شأنه- وتهاجر في سبيله وتطلب رضاه وتكون إنسانًا ربانيًّا فهو -جلّ شأنه- يرزقك من حيث لا تحتسب وهو حسبك يكفيك شأنك، ما دمت على التقوى، وقد وعد -جلّ شأنه- وهو لا يخلف الميعاد.

يعرفون الحق وينكرونه:

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأرض وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (العنكبوت: ٦١).

وهؤلاء الذين كانوا يتطاولون بألسنتهم ويعبرون عن كبريائهم بتساؤلاتهم وأسئلتهم التي قلَّ أن يكون لها مضمون يستحق الالتفات يقول الله -جلّ شأنه- لرسوله الكريم: إذا أردت أن تسألهم أو تدخل معهم في حوار أو تجادلهم في شيء فاسألهم عمن خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر، أهي آلهتهم هذه التي يدعون من دون الله؟ أم أصنامهم ؟ أم آبائهم الذين يزعمون اتباعهم؟! إنَّهم لن يجدوا شيئًا من ذلك يمكن أن يجيبوك به، ولن تسمح لهم أنفسهم على ضلالها وانحرافها أن تجيبك إلا بجواب واحد هو: أنَّ من خلق السموات والأرض وسخَّر الشمس والقمر إنَّما هو الله، إذًا ما دمتم تعترفون بأنَّه الله -تبارك وتعالى- فأنَّى يؤفكون أي يصرفون.

تقول العرب: أَفَكَهُ مثل ضَرَبَهُ إفكًا إذا صرفه عن الشيء أو قلبه من جهة إلى جهة أخرى، وفي سورة المائدة حين ذكر -جلّ شأنه- المسيح بن مريم وأمَّه الصديقة وأنَّهما كانا يأكلان الطعام، ليبين لهم ضلال طوائفهم المختلفة في المسيح بن مريم وأمَّه عَقَّب على ذلك بقوله: ﴿**انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ (**المائدة:٧٥**)، والمراد هنا أن يبيِّن الله -جلّ شأنه- كيف يصرف هؤلاء عن سبيل الهدى إلى سبل الشيطان ومن معه من شياطين الإنس، مع وضوح الأدلة والآيات البيِّنات.

وما كان عطاء ربك محظورا:

﴿**اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (**العنكبوت:٦٢**).

ثم يقول -جلّ شأنه- هؤلاء الذين يزعمون بل ويجعلون رزقهم مرتبطًا بتكذيبك وبإيمانهم بآلهتهم وشركهم وكفرهم: ﴿**وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**﴾ (**الواقعة:٨٢**)، هؤلاء يجهلون أنَّ ﴿**اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ**﴾ فيوسع على بعض الناس في أرزاقهم ويقدر للبعض الآخر بمقتضى حكمته -جلّ شأنه- وعلمه لما يصلح لعباده: ﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأرض**﴾ (**الشورى:٢٧**)، أي لو بسطه لهم كلهم لبغوا في الأرض، ذلك لأنَّ: ﴿**الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ**﴾ (**الفجر:١٥-١٦**)، والله -تبارك وتعالى- له حكمته وله تقديره: ﴿**كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**﴾ (**الإسراء:٢٠**).

جحود آيات الله دليل على عدم التعقل:

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأرض مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت:٦٣)

ثم يقول لنبيه –صلى الله عيه وآله وسلم: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأرض مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن أظهر حجتي عليكم وأظهر سفهكم وضآلة شأن الباطل الذي تتبنونه وتؤمنون به، فجحودكم بعد ذلك إنَّما هو دليل على أنَّكم لا تعقلون، ولو كنتم تعقلون لما جحدتم بآيات الله ولما سمحتم للشياطين أن تأفككم وتصرفكم عن الإيمان بالله وبما جئتكم به.

الحياة الدنيا ممر للحياة الحقيقية في الآخرة:

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٤).

ويبيّن –جلّ شأنه– أنَّ هذه الحياة الدنيا التي يتعلقون بها بجهلهم وبما ران على قلوبهم لن تكون في حقيقتها –إذا خلت من الإيمان– إلا لهوًا ولعبًا وتنافسًا على متاع زائل، ولو أدرك هؤلاء الذين فُتنوا بهذه الحياة وظنوا أنَّها نهاية المطاف وأنَّه لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار، لو أدرك هؤلاء وعقلوا لعلموا أنَّ الدار الآخرة لهي الحيوان، هي الحياة الحقيقيَّة هي الحياة التي لا يعقبها موت، وأمَّا هذه الحياة الدنيا فهي ممر وطريق إليها لو كانوا يعلمون، فبعد أن نفى عنهم التعقُّل والعقل في الآية السابقة نفى عنهم العلم في هذه الآيه الكريمة ليبيّن لهم ضآلة شأنهم، ولعل ذلك يحملهم على التدبُّر والتفكُّر.

عدم استقرار المشركين على حال:

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (العنكبوت:٦٥).

إذا ركب هؤلاء الفلك أي السفن دعوا الله مخلصين له الدين كأنَّهم لم يشركوا به يومًا فيخلصون التضرع والدعاء والمناجاة فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون، فبعد أن نفى عنهم العقل والعلم نفى عنهم الوفاء والاستقرار والاستقامة، فهم -قلوبًا ووجوهًا- بأيدي الشياطين -شياطين الإنس والجن- يقلبونهم كيف شاءوا.

تهديد:

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:٦٦)

ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا إذا كانوا يعتبرون، إذا ما كان في هذه الحياة ممتعًا فسوف يعلمون، وهذا تهديد لهم فسوف يأتي اليوم الذي يعلمون فيه أنَّ كل ما جئتهم به هو الحق وهو الخير والهدى، فيعلمونه وهم يشاهدونه ويعيشونه ولا ينفعهم علمهم -آنذاك- حين لم يتقبلوا ما جئتهم به من العلم.

من نعم الله أن جعل الحرم آمنًا:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (العنكبوت:٦٧).

فشبه جزيرة العرب ما كانت فيها بقعة يستطيع الإنسان أن يأمن فيها على ماله أو على نفسه، إلا تلك البقعة المباركة المحرمة، التي حرمها الله، آلا يرون أنَّ في ذلك نعمة كبرى مَنَّ الله عليهم بها تستحق أن تشكر ولا تكفر؟، أفبالباطل يؤمنون؟! أي بأوثانهم وأصنامهم التي يزعمون أنَّها آلهة، وهي باطل، وبنعمة الله يكفرون؟! إنَّهم بذلك تنكشف حقيقتهم وزيفهم وزيغهم وانحرافاتهم، وهم يجحدون نعم الله، وأبرزها نعمة الأمن والأمان لهذا الحرم.

من يفتري الكذب على الله يظلم نفسه:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ (العنكبوت:٦٨).

فما أضأل شأنهم، وأسخف عقولهم، وما أخف أحلامهم، إنَّهم ظالمون بذلك كلّه، ثم هم أشد الناس ظلمًا، وأكثرهم عدوانًا، بافترائهم على الله الكذب وتكذيبهم بالحق لما جاءهم، لقد افتروا على الله الكذب حين زعموا أنَّهم ما يعبدون تلك الأصنام إلا لتقربهم إلى الله زلفى، وما هى بفاعلة، إلى غير ذلك من افتراءاتهم وما أكثرها.

الجهاد في الله يؤدي إلى سبل الهداية:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت:٦٩).

أمَّا أنت ومن معك ممن جاهدوا فينا واهتدوا إلينا فأنتم المهتدون وأنتم المنصورون وأنتم الذين تحظون بمعيَّة الله؛ لأنَّكم محسنون، وأنتم حزب الله: **﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة:٢٢)**، واختياركم سبيل الجهاد فينا بكل مستوياته سوف يكون وسيلة لهدايتكم إلى سبلنا لتسلكوها فى الحياة الدنيا في سائر المجالات؛ في السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية والتعليم، كما أنَّها ستسلك بكم السبيل إلى الجنَّة -إن شاء الله تعالى.

والله أعلم.

طه جابر العلواني

من مواليد العراق عام ١٣٥٤ هـ -١٩٣٥.

- دكتوراه أصول الفقه، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٣.
- ماجستير كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر ١٣٨٨ هـ -١٩٦٨.
- ليسانس كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر ١٣٧٨ هـ -١٩٥٩.
- شارك في تأسيس المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ في الولايات المتحدة عام ١٤٠١ هـ -١٩٨١ ثم ترأسّه مدة عشر سنوات ١٩٨٦_ ١٩٩٦م.
- رئيس جامعة قرطبة في الولايات المتحدة منذ ١٩٩٦سابقا.
- عضو مجمع الفقه الإسلاميّ الدوليّ بجدة ورئيس المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية سابقا.

أحدث المؤلفات:

- **المحصول في أصول الفقه للرازي**. تحقيق ودراسة. القاهرة: دار السلام، ٢٠١١.
- **أفلا يتدبرون القرآن**. القاهرة: دار السلام، ٢٠١٠.
- **مقدمة في إسلاميَّة المعرفة**. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- **إصلاح الفكر الإسلامي: مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر**. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- **مقاصد الشريعة**. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- **الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي**. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- **الأزمة الفكرية ومناهج التغيير**. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- **نحو منهجية معرفية قرآنية**. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- **ابن رشد الحفيد: الفقيه والفيلسوف**، مراكش: جامعة القاضي عياض، المطبعة الوطنية، ٢٠٠٦م.
- **أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها**، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦م.

- **الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون**، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦م.
- **الوحدة البنائية للقرآن المجيد**، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦م.
- **لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب**، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦م.
- **لا إكراه في الدين: إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم**.ط٢، مشتركة بين المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ومكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦م.
- **نحو موقف قرآني من النسخ**، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧م.
- **نحو التجديد والاجتهاد، مراجعات في المنظومة المعرفية الإسلامية، أولا: الفقه وأصوله**، القاهرة: دار التنوير، ٢٠٠٨م.
- **التعليم الديني بين التجديد والتجميد**، القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٩م.
- **نحو إعادة بناء علوم الأمة الاجتماعية والشرعية، طه جابر العلواني، منى أبو الفضل**، القاهرة، دار السلام، ٢٠٠٩م.
- **مفاهيم محورية في المنهج والمنهجية**، القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٩م.
- **معالم في المنهج القرآني**، القاهرة: دار السلام، ٢٠١٠م.
- **الإمام فخر الدين الرازي ومصنفاته**، القاهرة: دار السلام، ٢٠١٠م.
- **نحو موقف قرآني من إشكالية المحكم والمتشابه**، القاهرة: دار السلام، ٢٠١٠م.
- **تفسير سورة الأنعام**، القاهرة: دار السلام، ٢٠١٢م.
- **إشكالية التعامل مع السنة النبوية**، هرندن، ڤرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٤م.
- **حوار مع القرآن، تجربة ذاتية ودعوة للتدبر**، القاهرة: دار السلام، ١٤٣٥هـ /٢٠١٤م.
- **تجربتي مع الحياة السياسية في العراق**، بيروت، منتدى المعارف، ٢٠١٦م، ج١.